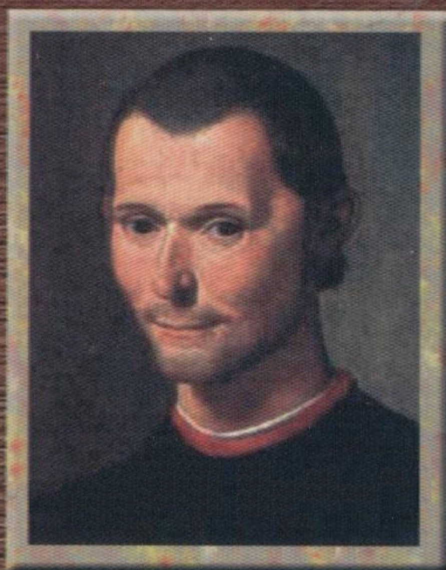
كتب غيرت مجرى العالم

كتاب الأمير

لمكيافيللى





ترجمة
أكرم مؤمن

كتب غيرت مجرى العالم

كتاب الأمير

لمكيافيللى

ترجمة

أكرم مؤمن





للطبع والنشر والتوزيع

٧٦ شارع محمد فريد - النزهة - مصر الجديدة - القاهرة
☎ ٦٣٧٩٨٦٣ - ٦٣٨٩٣٧٢ ف، ٦٣٨٠٤٨٣

اسم الكتاب

كتاب الأمير لمكيافيللى

اسم المترجم

اكرم مؤمن

تصميم الغلاف

قدرى عبد ربه

رقم الإيداع

٢٠٠٤/١٨٧٧٨

977 - 270 - 707 - 7

تطلب جميع مطبوعاتنا من وكيلنا الوحيد بالملكة العربية السعودية

مكتبة الساعى للنشر والتوزيع

ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٢٣ - هاتف، ٤٣٥٣٧٦٨ - ٤٢٥١٩٦٦ فاكس، ٤٣٥٥٩٤٥

جدة - هاتف، ٦٥٣٢٠٨٩ - ٦٥٢٤٠٩٥ فاكس، ٦٥٧٤١٨٩

طبع بمطابع العبور الحديثة بالقاهرة ت، ٦١٠١٠١٣ فاكس، ٦١٠١٥٩٩

Web site : www.ibnsina-eg.com E-mail : info@ibnsina-eg.com

كلمة المترجم

** **

لم يتوقع نيقولا مكيافيللي أن كتابه الأمير الذي انتهي من كتابته قبل وفاته بأربعة عشر عاماً سيصبح مرجعاً سياسياً مهما للكثير من قادة العالم عقب الثورة الصناعية. كما أنه لم يخيل إليه أن يصبح الكتاب ذا أهمية في عالم السياسة. فكل ما كان يطمح إليه هو أن يقرأ الأمير هذا الكتاب ويعمل بما جاء به ويستطيع توحيد إيطاليا. لكن الكتاب أيضاً وفي نفس الوقت يعتبر عاراً يلاحق مؤلفه حتى بعد وفاته بعدة قرون.

ورغم محاولات الدفاع العديدة عن الكتاب إلا أنها لم تفقده السمعة السيئة التي حاقت به وبمؤلفه. فقد وجد المؤلف ضالته في أمير حديث تولى ولاية موروثة عن آبائه، فكتب له هذا الكتاب ووضع فيه خلاصة فكره وتجاربه السياسية علها تفيد في تحقيق هدفه المنشود وهو توحيد إيطاليا.

لكن هذا الناصح الأمين لم يخجل من ذكر نصائحه صراحة ودون محاولة لتغطية ما فيها من معاني الخسة والانتهازية وعدم احترام حقوق الآخرين، بل واعتبار أن قتل الأبرياء شيء طبيعي من الممكن فعله من أجل الحفاظ على مُلك مغتصب، وذلك عندما نصح الأمير بأن يُبيد جميع أفراد الأسرة المالكة فيما يسقط بين يديه من ولايات وإلا أصبحوا خطراً عليه، وضرب على ذلك مثلاً بمن قتل كل أعيان وكبار بلده غدراً –ومن بينهم خاله الذي احتضنه ورباه بعد وفاة والديه– بعدما عاد إليها حتى يطمئن إلى أنه لن يبقى حوله سوى رجال جيشه المخلصين الولاء له فقط. كما أن مكيافيللي ينصح الأمير علانية بأن

يجمع كل الصفات الحميدة التي يفتخر بها الرجال ويلتزم بها أمام الناس، بل ويبذل كل ما في وسعه كي يشتهر بها، فيقول الناس عنه : إنـه كريـم وصادق وشهم وشجاع وحافظ على العهد. لكنه يشدد على أهمية أن يستخدم الأمير عكس كل هذه الصفات عند الحاجة إليها دون أي خجل من ذلك. فالمهم فقط هو ما يسعى إليه الأمير من شهرة طيبة تتحقق سواء التزم بهذه الصفات أم لا.

لذلك فقد ترددت قليلاً قبل الإقدام على ترجمة كتاب "الأمير" لنيقولا مكيافيللي. وذلك لأن اسم مكيافيللي في حد ذاته لا يرتبط بأي معنى طيب في ذهن القارئ العربي العادي، بل إن كثيرا من القراء العرب والمسلمين لا يعرفون عنه سوى أنه صاحب عبارة "**الغاية تبرر الوسيلة**" وهي عبارة وردت في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب، ومعناها واضح وصريح، أي الوصول إلى ما نريد بأي طريق حتى وإن كان طريقاً غير شريف. فهي عبارة تجرد معنى الانتهازية في أخس صورة.

وقد أثار كتاب مكيافيللي جدلاً كبيراً عندما نشر في أوروبا لأول مرة، فهو يتناول أخلاقيات السياسة وهو شيء لم يسبقه أحد إليه، إلا أن غالب النقاد في تلك الفترة أجمعوا على ما فيه من أخلاقيات شريرة، وقالوا إن الكتاب لا يناسب سوى الطغاة الأشرار من الحكام. وكنتيجة لهذه الشهرة في عالم الشر، فإن كل القراء في أوروبا في القرن السادس عشر، والقرن السابع عشر يعرفون كتاب الأمير وصاحبه مكيافيللي.

وقد أكد المسرح العالمي على تلك المعاني الشريرة الموجودة في أفكار مكيافيللي، وخاصة في كتاب الأمير. ففي المسرح الإنجليزي يقول شكسبير على لسان إحدى شخصياته في مسرحية "زوجات وندسور المرحات" : "ماذا .. هل أنا مخادع .. هل أنا مكيافيللي ؟" كما أن "مارلو" قد استخدم الشخصية

غير الأخلاقية على طريقة مكيافيللي في "يهودي مالطا" (١٥٨٩م) وهناك أمثلة أخرى عديدة.

ولم يقتصر الأمر على المسرح الأوروبي القديم والحديث، بل امتد إلى المسرح العربي الحديث أيضاً، حيث ترددت العبارات التالية في كثير من المسرحيات العربية : "هذه مكيافيلية رخيصة" أو: "هذا هو مبدأ مكيافيللي الرخيص" وغيرها من العبارات التي لا تحمل أي معنى للشهامة ، أو النبل ، أو الصدق ، أو الوفاء.

وعلى الرغم من أن فرنسيس بيكون (وهو معاصر لشكسبير) قد حاول توضيح أن مكيافيللي يتناول الأشخاص كما هم ، وليس كما يجب أن يكونوا، فإن ذلك لم يُجد نفعاً ، ولم يحسّن من سمعة مكيافيللي التي كانت موضع طعن وشبهات حتى أن اسمه قد أصبح مرادفاً للشر الذي لا ينافسه سوى شخصية الشيطان مفستوفاليس في مسرحية فاوست الشهيرة، والتي ترجمت للعديد من اللغات العالمية.

ومما ساعد على تفشي السمعة السيئة للكتاب ولصاحبه أنه قد صدر قرار في عام ١٥٥٩م بإدراج جميع أعمال مكيافيللي في قائمة الكتب الممنوع نشرها، كما أن كثيرا من الجبابرة والطغاة كانوا يحبون قراءة كتابه "الأمير". فيقال : إن "موسيليني" قد اختاره موضوعاً لرسالة الدكتوراه أيام دراسته. وكان "هتلر" يضع هذا الكتاب على مقربة من سريره ، ويقرأ فيه كل ليلة قبل أن ينام. فلا غرابة إذن لو علمنا أن "ماكس ليرنو" قد قال في مقدمته لكتاب "أحاديث" إن "لينين وستالين" قد تتلمذا أيضاً على مكيافيللي.

لكني ـ وبعد دراسة شاملة للأمر ، وقراءة غالب ما كتب من تحليلات عن هذا الكتاب وبعض ما صدر له من ترجمات للغة الإنجليزية ـ قررت بلا تردد

ترجمة هذا الكتاب لأسباب عديدة. من هذه الأسباب أن الكتاب مليء بالأخلاقيات السياسية السائدة في ذلك العصر، بل والسائدة حتى عصرنا هذا، سواء كانت هذه الأخلاقيات حميدة أم بغيضة. وهذا يوضح لنا كيف تأثر قدامى الساسة والمحدثين منهم بما ورد بهذا الكتاب ، وكيف استفادوا منه في تسيير أمور أعمالهم السياسية وغيرها.

ومن بين تلك الأسباب أيضاً أن هناك مواقف مذكورة بالكتاب ، يمكن تطبيقها على ما يحدث في عالمنا الحالي سواء في الشرق أو الغرب، وذلك رغم أخلاقياتنا العربية السمحة التي تعارض مبدأ مكيافيللي على طول الخط وتقول بأن "الضرورات فقط هي التي تبيح المحظورات" .

وقد وجدت أن الكتاب ، وبشهادة كثير من المؤرخين ، يعتبر أول ما كتب في علم السياسة الحديث ، الذي تفرع ، وتشعب ، وتعدد في عصرنا الحالي وأصبح علوماً سياسية تدرس في جامعات العالم. وقد وضع الكتاب الأسس التي تمكن الحاكم من اختيار قادته ومستشاريه ونوابه، وإن كان أيضاً يوجه الحاكم إلى أهمية البطش بمعارضيه والقضاء عليهم، فهو إذن يحتوى على الصالح والطالح من الأفكار، ولا بأس من ترجمته، لنعرف ما فيه من خير وإن كان قليلاً ونتجنب ما فيه من شر. فترجمته للعربية ستكون مفيدة للكثير من الباحثين والدارسين والطلاب.

والكتاب يشير إلى جزء هام من تاريخ إيطاليا وتاريخ العالم، لكنه لا يذكر تفاصيل بعض المواقع أو الأحداث التاريخية ، والمعارك التي قد تكون مجهولة بالنسبة لقارئ الكتاب، بينما يتحدث عنها مكيافيللي وكأن الجميع يعلمها علم اليقين. فعلى سبيل المثال لا الحصر ، يشير مكيافيللي إلى قصة "سيدنا موسى" مع بني إسرائيل تلميحاً كمثال لوقوع المعجزات فيما مضى. كما أنه يشير

للإسكندر والسلطان العثماني ، وإلى المماليك في مصر وغيرهم من القادة القدامى والقادة المعاصرين له. وهذا قد يجعل القارئ يبحث عما تحدث عنه مكيافيللي من أحداث تاريخية ، ومواقع حربية ومعارك ليقرأ عنها بالتفصيل فتكون هناك فائدة جديدة من وراء قراءة الكتاب.

كما أني رأيت ألا نخشى ترجمة كتاب لمكيافيللي لمجرد ما فيه من أفكار شريرة وقاسية وقد قرأنا من قبل كتباً مترجمة عن الماركسية والشيوعية وغيرها مما لا نؤمن به من أفكار تتعارض مع ديننا الإسلامي الحنيف، نقرأ عنها للاطلاع والمعرفة، وحتى نعي ما يحدث عندما تتسلل بعض مبادئها إلى شبابنا أو تدس له عن قصد. فليس جميع من بالمشرق والمغرب مؤمنين بضرورة الحوار الشريف مع الآخر، وليس جميع المثقفين في دول العالم المتقدم مستعدين لنقل ما يفيد للآخرين من أبناء الشعوب الأخرى في دول العالم الثالث، بل إن الكثيرين منهم مستعدين لنقل ما يضر من مبادئ وأخلاقيات عن قصد إلى أبناء هذا العالم الثالث المسكين حتى يظل في مرتبة تالية ولا يرقى إلى ما يعتبرونه حريا بهم هم فقط.

ومن أجل كل ذلك، استعنت بالله وشرعت في ترجمة هذا الكتاب الذي هو بين يديك الآن وكل ما أقصده هو العلم بما فيه وتناول موضوعاته مع عدم التعليق عليها كثيراً ، وذلك لأن ما فيها من خير واضح جداً وإن كان قليلا (مثل الحديث عن فنون القتال والتحصن من الأعداء)، وما فيه من شر هو أكثر وضوحاً.

وأنا لا أجد غضاضة في أن نقرأ ما جاء بالكتاب ، وإن ناقض بعض مبادئنا العربية السمحة الأصيلة، بل إن ذلك مفيد لنا لكي نعرف كيف كان ساسة الغرب يفكرون في تلك الفترة ، وكيف تأثروا بهذه الأفكار حتى الآن.

وحتى نعرف أيضاً أن بعض هذه الأفكار قد انتقل إلى ثقافتنا العربية ، وطبقها بعض الحكام. كما يمكننا أن نقارن بين ما ينصح به مكيافيللي أميره المحبوب وبين ما يحدث في بعض أركان عالمنا اليوم. ولن يكون صعباً علينا أن نجد بعض الطغاة يعملون بما جاء به ، ويستفيدون منه في البطش بالضعفاء المسالمين وفي الاستيلاء على ممتلكات الآخرين سواء كانت أراضِيَ أو ممتلكات، بل وسنجد بصمات مكيافيللي أيضاً في طريقة قيام بعض الحروب العدوانية والإبادة الجماعية لبعض الطوائف وغيرها من أمثلة كثيرة.

وخلاصة القول هي أنني لم أقصد من وراء هذه الترجمة إلا المصلحة العامة، وأشهد الله على ذلك. فإذا وافقني القارئ على ذلك ، وشعر أنه قد استفاد مما قرأ، فإني أحمد الله على ذلك. ومن يرى غير ذلك فحسبي أنني اجتهدت ولم أقصد إلا الخير لقارئي اللغة العربية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

أكرم مؤمن

مُقَدِّمَة

لم يكن نيقولا مكيافيللي مجرد كاتب أو فيلسوف أو صاحب نظرية، بل إنه كان مشتركاً بقوة في الحياة السياسية المضطربة وغير المستقرة التي مرت بها مدينة "فلورنسا" في الفترة التي عاش فيها.

ولد نيقولا مكيافيللي عام ١٤٦٩م في أسرة عريقة، وكان "المديشيون" قد أقاموا حكماً استبدادياً، لكنه حافظ على الأنظمة الجمهورية القديمة، في حين سيطروا بشدة على زمام الحكم الحقيقي. ولم تكن أسرة مكيافيللي موالية لأسرة "ميديشي". وكان والد نيقولا مكيافيللي محامياً مشهوراً، وهو من كبار الداعين إلى الجمهورية.

أما عن حياة مكيافيللي كشاب، فإن المتوفر عنها من معلومات قليل جداً. على أنه من المفترض أنه قد تثقف ثقافة أبناء الطبقة المتوسطة المعتادة في عصره. فقرأ في تاريخ الرومان والترجمات اللاتينية لمختلف أمهات الكتب الإغريقية القديمة.

شب مكيافيللي في عهد أمير مديشي أطلق عليه أهل "فلورنسا" اسم "لورنزو العظيم". وقد اعتبر عهده عصراً ذهبياً للنهضة الإيطالية. كان "لورنزو" أديباً وشاعراً مفطوراً، فاهتم بالأدباء والفنانين وأهل العلم. لكنه مات عام ١٤٩٢م، واضطر خلفه "بييرو" إلى الخروج إلى المنفى بعد عامين، بعدما تعرضت المدينة لغزو جديد على يدي "شارل الثامن" ملك فرنسا. وقد ظهر راهب دومنيكاني اسمه "سافونارولا"، وتمكن من إصلاح الجمهورية، ونجح في إقامة حكومة دينية ما لبثت أن انهارت، وأعدم الراهب وأحرقت جثته في عام

١٤٩٨م. وبعد بضعة أشهر انتخب مكيافيللي سكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية "فلورنسا" وهي تشرف على الشئون الخارجية والعسكرية. وقد استمر "مكيافيللي" في الحكم ثلاثة عشر عاماً. ثم حدث ما لم يكن متوقعاً. حيث جاء الجيش الفرنسي مرة أخرى إلى "فلورنسا"، فاضطر أهلها إلى استدعاء أسرة مديشي، وبالتالي خرج "مكيافيللي" منفياً من مدينته.

اعتمد "مكيافيللي" أثناء حياته في منفاه الريفي على دخل بسيط من ممتلكاته التي توجد في بعض الضواحي. وكان يستيقظ مبكراً ويخرج إلى الغابة يتحدث للحطابين ويتبادل معهم الأقاويل والشائعات. ثم يذهب إلى أحد التلال وحيداً، وهناك يقرأ "لدانتي أو شيراك أو تبيولوس أو أفيد". وبعد أن يتناول غداء خفيفاً، يمضي إلى الحانة فيتحدث مع الطحان والقصاب وبعض البناءين، ويقضي معهم طيلة فترة الظهيرة يلعبون الورق والنرد ويتشاجرون على دراهم معدودة.

وعندما يأتي المساء، يعود للمنزل، ويغير ثيابه الريفية التي عادة ما تكون قد أصابتها الأوساخ والقاذورات أثناء جولته. ويرتدي ملابس البلاط والتشريفات لكي يكون في صحبة من أحبهم. ويدخل إلى مكتبته الخاصة. كان يعتبر ذلك هو حياته الفعلية. وكان خلال ذلك الوقت يدون ملاحظات في كتاب صغير أسماه "الأمير".

اعتزم "مكيافيللي" بعد ذلك أن يهدي كتابه "الأمير" إلى أحد أفراد أسرة ميديشي آملاً أن ينعموا عليه بمنصب جديد فيعود إلى حياة الخدمة العامة. وقد كتب بالفعل إهداء عنونه :

من نيقولا مكيافيللي

إلى لورنزو، الابن العظيم لبيرو دي ميديشي

وهناك شك في أن يكون الكتاب قد قدم فعلاً إلى "لورنزو" قبل وفاته في عام ١٥١٩م. ولكن من المؤكد أن هذا الكتاب قد وزع بشكل ملحوظ وطبع مرات عديدة، لكنه لم يطبع إلا بعد خمس سنوات من وفاة "مكيافيللي" أي في عام ١٥٣٢.

كُرم مكيافيللي في أواخر حياته بفضل جهود بعض أصدقائه، وذلك بأن أوفد في بعض البعثات غير ذات الشأن الكبير. كما أن الكردينال دي مديشي (الذي أصبح البابا كليمنت فيما بعد) قد أوكل إليه بكتابة "تاريخ فلورنسا" وخصص له راتباً سنوياً متواضعاً. وفي تلك الأثناء ازدادت مشكلات إيطاليا وتعقد ما تعاني منه من مشاحنات وخصومات. كل ذلك ساعد على مضاعفة شقاء مكيافيللي وتعاسته. فقد بدأ "لوثر" حركة الإصلاح الديني وتنافس "شارل الخامس" إمبراطور ألمانيا مع "فرنسوا الأول" ملك فرنسا من أجل السيطرة على إيطاليا، مما ألحق بروما الكثير من الخراب والتدمير وأدى إلى طرد عائلة مديشي مرة أخرى من فلورنسا.

وقد أعيدت طباعة كتاب "الأمير" عشرين مرة خلال عشرين عامًا. وإذا كان هناك بطل لهذا الكتاب فهو قيصر "بورجيا" الذي يخصص الفصل السابع من الكتاب لسرد أعماله ومآثره وصفاته وللثناء عليه وإطرائه. وقد أخطأ مكيافيللي خطأ كبيراً عندما اختاره بطلاً لكتابه. فقد اقترف هذا البطل جرائم كثيرة ليصل إلى السلطة، كما ارتكب جرائم أخرى بصورة عارضة. وقد ساهم ذلك الاختيار الخاطئ في تعميق اكتساب مكيافيللي للشهرة السيئة بعد وفاته، وعندما نشر الكتاب.

وقد أصبح هذا الكتاب الصغير منذ ظهوره في القرن السادس عشر مثار جدال كبير. كما أصبح مادة ضرورية لدراسة علم السياسة في عصر النهضة. وعلى الرغم من كل ذلك استمر الجدال الحاد ، والخلاف الكبير حول الكتاب. وهو على الرغم من اشتماله على عدد كبير من المبادئ والمفاهيم السياسية الناضجة التي اعتنقها مكيافيللي، إلا أنه لا يشمل كل آرائه السياسية.

ومنذ ظهور الكتاب في طبعاته الأولى والخلاف يدور حول ما فيه من مضامين أخلاقية. وقد تطور هذا الخلاف إلى ما هو أبعد من مجرد تناول أغراضه العملية وعلاقته بالمستقبل السياسي لعائلة مديشي. وقد اعتبره علماء الأخلاق وخاصة في بريطانيا وفرنسا كتابًا مناسبًا فقط للطغاة الأشرار.

وكنتيجة لهذه السمعة السيئة التي لحقت بالكتاب، أصبح كتاب "الأمير" معروفاً للقراء الأوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكثرت الإشارة إليه في الأدب المسرحي في تلك الفقرة. بل إن شخصية مكيافيللي نفسها قد استخدمت في بعض الأعمال المسرحية كشخصية شريرة بما يتناسب مع هذه السمعة.

إلا أن تناول مكيافيللي لتضارب المصالح بين العامة والحكام، كان موفقاً للغاية ويعتبر إنجازاً حقيقياً ، وهذا تضارب يحدث عادة بغض النظر عمن هم أطرافه أو عن الفترة الزمنية التي يحدث فيها هذا التضارب، فالتاريخ يعيد نفسه.

ويعتبر مكيافيللي مسئولاً ولو جزئياً عن الجدل الذي ثار حول كتابه "الأمير" عقب طباعته. فهو لم يحاول تنظيم أفكاره ولا تفسير مصطلحاته

التقليدية. كما أنه أخفق أيضاً في توضيح العلاقة بين الأمير الجديد الذي سيصلح الهيئات الفاسدة وبين النظام الجمهوري الذي كان هو من الدعاة إليه. كما أنه قضى طوال حياته مخلصاً لهذا النظام ومنادياً به ، ومدافعاً عنه.

وعلى كل حال فإن الترجمة التالية للكتاب ستوضح للقارئ كل أفكار مكيافيللي الواردة في هذا الكتاب، وسواء كانت تلك الأفكار أفكارا طيبة أو خبيثة، فذلك واضح وضوح الشمس. ولا يحتاج إلى تعليق في أي موضع من الكتاب. ويمكننا أيضاً الاستفادة مما في الكتاب من خير وإن قل وتوارى بين طيات ما هو خبيث. كما يمكننا أيضاً تجنب ما في الكتاب من شر واضح. ويستطيع القارئ بنفسه تكوين فكرة صائبة عن الكتاب وعن مؤلفه. فالمؤلف لم يجهد نفسه بتزيين أفكاره لتبدو طيبة ورائعة من الخارج فقط، وقد ذكر ذلك في الإهداء الذي صدر به كتابه. ولكنه كان مباشرًا وصريحاً في كل ما كتب في هذا الكتاب. وأتمنى للقارئ العربي أن يستمتع بقراءة هذا الكتاب ويقارن ما قرأه فيه بما يحدث في كثير من بقاع الأرض في عالم اليوم.

المترجم



نيقولا مكيافيللي ١٤٦٩-١٥٢٧م

١٤٦٩ مولد نيقولا مكيافيللي في فلورنسا.

١٤٩٨ اختير مكيافيللي سكرتيراً للمستشارية الثانيـة لجمهوريـة فلورنسا وهي تشرف على الشئون الخارجية والعسكرية.

١٥٠٠ انتهى مكيافيللي من أولى بعثاته الدبلوماسية إلى فرنسـا حيـث قـابل الملك لويس الثاني عشر.

١٥٠٢/٣ انتهى مكيـافيللي مـن بعثتـه الدبلوماسـية الـتي زار خلالهـا قيصـر "بورجيا" والتي شهد خلالها سقوط بورجيـا مـن السـلطة عقـب وفـاة والده البابا الإسكندر السادس.

١٥٠٤ يعود مكيافيللي إلى فرنسا مرة أخرى.

١٥٠٦ أرسل مكيافيللي في بعثة دبلوماسية إلى البابا جوليوس الثـاني.

١٥٠٧/٨ قام مكيافيللي بأولى بعثاته إلى الإمبراطور مكسيميلان.

١٥١٢ تمت الإطاحة بجمهورية سودريني وعادت أسرة مديشي إلى الحكم في فلورنسا.

١٥١٣ نجا مكيافيللي بأعجوبة من عقوبة قاسية وطرد مـن عملـه، فلجـأ إلى

مقره الريفي في سانت أندريا حيث بدأ كتابة "أحاديث" وانتـهى من كتابة "الأمير".

١٥١٣/١٧ انتهى مكيافيللي من كتاب "أحاديث".

١٥١٥/١٦ انتهى مكيافيللي من كتاب "فن الحرب".

١٥١٨ ألف مكيافيللي أكبر أعماله الأدبية "جذور تفاح الجن[١]"

١٥١٩ ظهرت أولى طبعات "جذور تفاح الجن".

١٥٢٠ كلفت جامعة "فلورنسا" مكيافيللي بكتابة تاريخ "فلورنسا".

١٥٢١ طبع كتاب "فن الحرب" وهو الكتاب الوحيد الذي طُبع من أعمال مكيافيللي السياسية أثناء حياته.

١٥٢٥ ربما يكون مكيافيللي قد ألف كتاب "حوار حول اللغة" فهناك جدال حول اسم المؤلف.

١٥٢٦ قُدم كتاب "تاريخ فلورنسا" إلى البابا "كليمنت السابع".

١٥٢٧ مات مكيافيللي ودفن في سانتا كروس في فلورنسا

١٥٣١ نُشر كتاب "أحاديث".

١٥٣٢ نُشر كتاب "الأمير".

١٥٥٩ أُدرجت أعمال مكيافيللي في قائمة الكتب الممنوعة. وقررت محاكم التفتيش إحراق جميع كتبه.

١٥٧٦ كتب أحد الفرنسيين البروتستانت رداً عنيفاً على كتاب "الأمير". وقد انتشر هذا الكتاب بسرعة وترجم إلى الإنجليزية.

١٦٤٠ ظهرت أول ترجمة إنجليزية لكتاب "الأمير" وترجمه "إدوارد دايسرز".

---

[١] – نبات ينمو في جنوب أوروبا وكان يعتقد في السابق أن له قوى سحرية بسبب جذوره التي تشبه جسم الإنسان.

كتاب الأمــير

لمكيافيللي

من نيقولا مكيافيللي

إلى لورنزو، الابن العظيم لبيرو دي ميديشي

من المعروف أن أولئك الذين يسعون إلى نيل رضاء أحد الأمراء يجتهدون في تقديم الهدايا الثمينة ذات القيمة الغالية إليه. أو أنهم يهدونه أشياء يعلمون أنها تُدخل البهجة والسرور إلى نفسه ويسعد بها ، ويحب رؤيتها. وعلى هذا الأساس نجد أن غالب الأمراء يقبلون هدايا تتمثل في جياد أصيلة ، أو أسلحة ثمينة ، أو ثياب موشاة بالذهب أو الأحجار الكريمة ، وما شابهها من تحف تليق بمكانتهم العظيمة.

ولكنني على أي حال أود أن أهدي سموكم الكريم شيئاً متواضعاً يدل على إخلاصي لكم. ولم أجد فيما أملك ما هو أغلى من معرفتي بأعمال ومنجزات عظماء الرجال. وهي معرفة اكتسبتها من خلال تجربة طويلة مررت بها وقد صاحبها العديد من الأحداث إضافة إلى ما درسته حول ما حدث في الماضي.

وبعد تفكير عميق وبذل الكثير من الجهد في دراسة ، وتأمل منجزات العظماء، أهدي سموكم اليوم ما توصلت إليه من نتائج، وقد وضعتها في هذا الكتاب الصغير.

ورغم أنني أعتبر أن هذا الكتاب المتواضع قد لا يرقى لقبول سموكم، إلا أنني واثق من عطف سموكم وقبولكم له. فسموكم تعلمون أنني غير قادر على إهدائكم ما هو أعظم ، أو أكثر قيمة من هذا الكتاب. فهو يمكن سموكم من التعرف في وقت قصير على كل ما اكتسبته طوال حياتي ، وما تحملت من أجله الكثير من الأخطار والفقر طوال سنوات عمري الطويل . وأنا لم أتعمد بأي حال أن أجمل كتابي هذا بالمحسنات والكلمات المؤثرة المفتعلة ، وهو أمر

يتبعه كثير من الكتاب. كما أنني لا أعتقد أنه من غير اللائق أن يتجرأ رجل بسيط من عامة الشعب مثلي على مناقشة الأمراء وتوجيه الحكومات. فمصوري المناظر الطبيعية ينزلون إلى الوديان ليتمكنوا من رسم الجبال. ثم إنهم يصعدون إلى أماكن مرتفعة حتى يتمكنوا من رؤية السهول والوديان. ولذلك فمن الضروري أن تكون أميرًا حتى تعرف طبيعة شعبك، كما أنه يجب أن تكون أحد الرعية أيضا كي تعرف الحقائق المتعلقة بالأمراء.

وأنا استأذن سموكم أن تقبل هديتي المتواضعة. فإذا نظرتم إليها ملياً يا صاحب السمو فستجدون أنها تعبر عن رغبتي الصادقة المخلصة في أن يبلغ سموكم شأناً رفيعاً أنتم أهل له لمنبتكم الشريف وصفاتكم الشخصية الفذة.

ولو تفضلتم سموكم بإلقاء نظرة على هذا الكتاب الصغير، فسوف يتأكد لكم من مدى الجهد الذي بذلته فيه وقدر المعاناة الطويلة التي كانت هي حظي في الحياة.

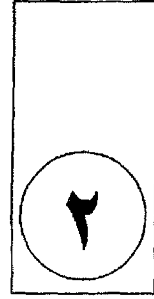
* * * *



الأنواع المختلفة للحكومات وطرق إقامتها

كل الدول تمارس السلطة وتسيطر على الشعوب. وهي إما جمهوريات أو ممالك. والممالك إما أن تكون وراثية وحكامها من أسرة واحدة. وتستمر في الحكم لسنوات طويلة. أو أنها تكون ممالك حديثة النشأة مثل مملكة "ميلان" في عهد "فرانسيسكو سفورزا". أو أن تكون قد انضمت حديثاً كأجزاء جديدة ، تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة مثل مملكة نابولي في عهد ملك أسبانيا. والممالك التي تكتسب بهذه الطريقة إما أنها كانت في حوزة أمير آخر، أو أنها كانت ممالك حرة تم ضمها بالقوة إلى مِلك الأمير نفسه ، أو إلى أمراء آخرين وآلت إليه من بعدهم. أو أن القدر قد ساقها إليه أو أن يكون قد تمكن من ذلك بسبب قدراته الخاصة.

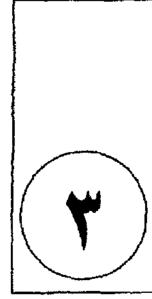
* * *



الممالك الوراثية

لن أتحدث هنا عن الجمهوريات حيث تناولتها تناولاً شاملاً في كتاب آخر، ولكني سأتناول هنا الممالك، وسأتناول أنواعها المختلفة التي سبق أن ذكرتها وكيفية حكمها والسيطرة عليها. وأول ما نلاحظه هو أن صعوبة الوصول إلى عرش الملك في مملكة وراثية اعتاد أهلها على الأسرة الحاكمة أقل بكثير من صعوبة الوصول إلى العرش في الممالك الجديدة. حيث لا يكفي تجنب الأوضاع التي كان يتبعها السلف والتحسب لأي طارئ. وفي مثل هذه الحالة فإن الأمير وإن كان ذا قدرات عادية فإنه سيستطيع أن يحافظ على عرشه إلا إذا اضطرته قوة غير عادية شديدة إلى التخلي عنه. وحتى إذا فقد عرشه، فإنه مع أول خطأ بسيط من المحتل، سيكون قادراً على استعادة العرش.

وعندنا في إيطاليا مثال واضح على ذلك وهو الدوق "فيريرا" الذي استطاع صد غارات "البنادقة" عام ١٤٨٤م وكذلك صد البابا "جوليوس" عام ١٥١٠م لا لشيء سوى قِدَم أسرته في حكم هذه الدوقية. حيث إن الأمير الشرعي المحبوب من شعبه الذي لا توجد له رذائل مفضوحة أمام الناس لا يحب شعبه أن يتخلص منه، ومن الطبيعي لشعبه أن يتمسك به. ومن الطبيعي أيضاً أن يتناسى الأسباب والدواعي البسيطة التي تدعوه لتغيير الحاكم، حيث إنه إذا حدث تغيير مفاجئ ، فإنه سيفسح الطريق أمام تغيير آخر.



المالك المختلطة

لا تكمن الصعاب حقاً إلا في الممالك الجديدة. فإذا كانت المملكة ليست جديدة بالكامل ، أي أنها مملكة مختلطة بعضها حديث ، والآخر قديم فإن الاضطرابات تحدث فيها بسبب الصعوبات الطبيعية التي تحدث في كل الممالك الجديدة ، وذلك لأن الناس يذعنون لسادتهم بإرادتهم على أمل تحسن أحوالهم. وهذا الاعتقاد يجعلهم يحملون السلاح ضد حكامهم، وهم في ذلك مخدوعون حيث أثبتت التجارب فيما بعد أنهم يذهبون من سيئ إلى أسوأ. وهناك ضرر طبيعي وحتمي ينتج عن هذه الحالة وهو يقع على هؤلاء الذين ساعدوا الأمير في السيطرة على مملكته سواء كانوا جنوداً ، أو مساعدين له، بالإضافة إلى الإصابات التي لا حصر لها التي تحدث بسبب احتلال جزء جديد.

وهكذا يتحول كل من أصيب في معركة قمت بها للسيطرة على الأرض إلى عدو لك، ولن تستطيع الحفاظ على صداقة من ساعدوك على الحصول على هذا الجزء من المملكة كما لن تستطيع تحقيق ما يتمنونه ولا أن تطبق عليهم قوانين صارمة حيث ستكون معترفا لهم بجميل مساعدتهم لك. ولهذا السبب على أي حال، فإنك أيها الأمير ستكون في حاجة دائمة إلى حب الناس حتى تستطيع السيطرة على بلادهم مهما كانت قوة جيوشك. وهذه هي الأسباب التي جعلت "لويس الثاني عشر" ملك فرنسا ، وعلى الرغم من قدرته على احتلال "ميلان"

بلا مشاكل، إلا أنه سرعان ما فقد السيطرة عليها حيث استطاعت قوات "لودوفيكو" بمفردها أن تستعيدها منه في المرة الأولى، وذلك لأن سكانها الذين فتحوا له بواباتها بإرادتهم قد اكتشفوا أنهم قد خُدعوا بآمال لم تتحقق ولم يحصلوا على أي ميزة كانوا يتوقعونها، فلم يتحملوا استمرار حكم ملكهم الجديد.

ومن المعروف أن الأقاليم التي تتمرد على أمرائها يصعب فقدانها مرة أخرى بعد استعادتها، حيث يصبح الحاكم -وبسبب سابق تمردهم- أكثر حرصاً على دعم موقفه ومعاقبة المتمردين وكشف المرائين وتقوية نقاط الضعف. لذلك وعلى الرغم من أن مجرد ظهور الدوق "لودوفيكو" على الحدود كان كافياً لأن تفقد فرنسا سيطرتها على "ميلان" في المرة الأولى، إلا أن فقدان السيطرة عليها مرة أخرى لم يكن ممكناً إلا عندما تحالف الجميع ضدها وبعد أن هزمت جيوشها وطردت من إيطاليا. وذلك للأسباب السابق ذكرها. أي أنها سقطت في المرتين الأولى والثانية. وقد أشرنا تواً إلى أسباب سقوطها في المرة الأولى. والآن يجب أن نعرف أسباب سقوطها في المرة الثانية وكيف كان يمكن لفرنسا أن تتجنب هذا السقوط، وما هي الإجراءات التي كان يجب اتخاذها لو أن هناك حاكما آخر في مكان ملك فرنسا ليتجنب فقدان السيطرة على جزء من مملكته. وأول ما يجب علينا أن نسأل عنه هو ما إذا كانت هذه الأقاليم تتكلم نفس لغة وجنسية الدولة التي تضمها أم لا. فإذا كانت اللغة والجنسية واحدة فإنه من السهل ضم هذه الأقاليم والسيطرة عليها خاصة إذا كانت هذه الأقاليم غير معتادة على التحرر. ولكي نملكها بسلام يجب أن تُمحَى الأسر التي كانت تحكمها من الوجود. أما بالنسبة لبقية الشعب فإنهم سيظلون تحت إمرة الأمير الجديد ، طالما أنه لم يحدث ما يغير من ظروف حياتهم السابقة ، أو

يغير من عاداتهم، وهذا واضح فيما حدث في كل من "بورجوندي ، وبريتاني ، وجاكسوني ، ونورماندي" التي انضمت لفرنسا منذ وقت طويل، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات البسيطة في اللغة، إلا أن عادات الشعوب كانت متشابهة من جهة أخرى مما مكنهم من الاستمرار في الاتحاد. ومن يسيطر على أراض ويريد أن يحتفظ بها لابد أن يضع في اعتباره أمرين. أولهما القضاء على الأسرة الحاكمة السابقة قضاء مبرما ، وثانيهما عدم تغيير أي قوانين أو ضرائب خاصة بهذه البلاد وبهذه الطريقة ستصبح جزءاً من الاتحاد في وقت قصير جداً، وتصبح الدولة كيانا واحدا .

ولكن عندما يكون شعب الأراضي المنضمة حديثاً يتحدث لغة مختلفة وقوانينه وعاداته مختلفة، فإن الصعوبات التي يجب التغلب عليها تصبح أكثر وتتطلب حظاً وفيراً وحنكة للتغلب عليها. وإحدى أفضل الطرق وأكثرها تأثيراً هي أن يقيم الحاكم الجديد في تلك الأرض. وهذا سيجعل ملكيته لها أكثر أمناً واستمراراً. وهذا هو ما فعله الأتراك في بلاد الإغريق. فعلى الرغم من كل ما فعلوه هناك للسيطرة على الدولة لم يكن من الممكن المحافظة عليها ، لولا أن الحاكم ذهب وعاش هناك. فوجوده في موقع الأحداث يمكنه من معاصرة الاضطرابات ، وهي لا تزال في المهد ومن ثم معالجتها بسرعة، إما إذا عاش بعيداً عن تلك الأرض فإنه سيعرف بحدوث الاضطرابات فقط عندما تكون قد تفاقمت ، وغير قابلة للعلاج. كما أن رجال الأمير الرسميين لن ينهبوا البلاد ، وسيسعد الرعايا بقربهم من الحاكم واتصالهم المباشر به. وإذا أرادوا أن يكونوا مخلصين له ، فإنهم سيجدون كثيرا من الأسباب ليحبوه. أما إذا ظلوا على ولائهم القديم ، أو أنهم ينحازون ضد الحاكم الجديد فإن وجود الأمير الجديد قريبا منهم سيكون سبباً للردع والخوف منه. كما أن إقامته ستجعل أي قوى

خارجية تهاب محاولة غزو تلك الولاية. وكلما طالت مدة إقامته فيها يصعب جداً تجريده منها.

والعلاج الآخر وهو أفضل يتمثل في زرع المستعمرات في عدة أماكن مميزة بالأرض المستعمرة، ومن الضروري أن نفعل ذلك أو أن نحتفظ بعدد كبير من القوات المسلحة في نفس المكان. والمستعمرات ستكلف الأمير أموالاً أقل، فهو يستطيع إرسال المستعمرين للإقامة هناك باستمرار بدون أي تكلفة مادية يدفعها أو بتكلفة قليلة. والمضرة ستقع فقط على هؤلاء الذين ستؤخذ بيوتهم أو أراضيهم لمنحها للمقيمين الجدد، وهذا يعتبر نوعاً من الحماية للدولة، أما من تضرروا فإنهم لن يستطيعوا الانتقام من الحاكم إن ظلوا فقراء ومتفرقين . أما الباقون الذين لم تصبهم مضرة فمن السهل تهدئتهم، حيث أنهم سيخشون لقاء نفس المصير إن هم اعترضوا فسوف يجردون من ممتلكاتهم أيضاً. وخلاصة القول أن المستعمرات لا تتكلف أي مال وستكون أكثر ولاء وأقل اضطراباً، ، أما المتضررون فسيظلون غير قادرين على الإضرار بالحاكم ما داموا متفرقين وفقراء كما أوضحت. ويجب أن نلاحظ أن الرجال إما أن يستمالوا أو تتم إبادتهم، كما أنهم يثأرون لأنفسهم في الأمور الصغيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك في الأمور الكبيرة، فإذا ما أضير الرجل مضرة كبرى فلا يجب علينا أن نخشى انتقامه. ووجود القوات بدلاً من استخدام طريقة المستعمرات سيكلف الحاكم مالاً أكثر، مما سيجعله ينفق كل عائدات هذه المستعمرة في المحافظة عليها، وبذلك يكون ضمها خسارة مادية، إضافة إلى أن ضرر القوات العسكرية كبير حيث يتأذى كل من يعيش في تلك الأرض من عسكرة الجيش عليها. وهذه المضايقة الجماعية للشعب ستجعل من كل واحد منهم عدوا لك، يمكنه أن يفعل ما يضرك. فهم باقون بمنازلهم رغم الهزيمة. وعلى أي حال ستكون معسكرات

الجيش عديمة الفائدة بينما تحقق المستعمرات فوائدها.

كما أن الحاكم الذي يحكم إقليما أجنبيا كما أوضحت، يجب أن يجعل من نفسه قائداً وحامياً لجيرانه الأقل قوة منه ويسعى جاهداً لإضعاف الأقوياء منهم. وأن يحذر أن يغزوهم أجنبي أقوى منه، فمن لا يرضى بذلك سيدعوه للتدخل إما خوفاً أو طمعاً، وقد حدث ذلك حينما دعا "الإيتوليون" الرومان إلى بلاد الإغريق. وأي بلد دخلها الرومان كان بناء على طلب من أهلها. وهناك قاعدة تقول : إن أي أجنبي قوي يدخل إلى بلد فإن كل المستضعفين من سكانها سيؤيدون هذا الأجنبي مدفوعين في ذلك بحقدهم على حكامهم. ولا يتكبد الأمير أي عناء في ضمهم إليه لأنهم ينضمون بإرادتهم إلى قواته الغازية. ويجب على الأمير فقط أن يحذر من أن ينالوا سلطاناً كبيراً أو قوة، حيث يتمكن من سحقهم ، والسيطرة على الإقليم باستخدام قواته والموالين له. ومن لا يستطيع تحقيق ذلك سيواجه صعوبات ومشكلات لا حصر لها.

وقد اتبع الرومان دائما هذه السياسة فيما سيطروا عليه من ولايات. فقد أقاموا المستعمرات. وأقاموا علاقات حميمة مع الدول الضعيفة المجاورة دون السماح لها بمزيد من القوة، وأضعفوا الدول القوية ولم يسمحوا للحكام الأجانب بالسيطرة عليها. وسأضرب هنا مثلاً بولاية الإغريق حيث أقام الرومان صداقة مع "الآخيين والأيتوليين"، إلا أنهم لم يسمحوا لهم بالتوسع في الإقليم. كما أنهم أضعفوا مملكة مقدونيا وطردوا "أنتيوكس". ولم يفلح صديقهم "فيليب" في استمالتهم له دون أن يضعفوا نفوذه. كما لم تغرهم قوة "أنتيوكس" بالموافقة له على السيطرة على أي ولاية في المنطقة.

وفي كل هذه الحالات سلك الرومان مسلك الأمراء الحكماء، الذين لا ينظرون إلى اضطرابات الحاضر فقط ، ولكن أيضاً إلى ما سيقع منها في

المستقبل، ويتأهبون له قبل وقوعه. فما يمكن التنبؤ به يمكن علاجه بسهوله. إما إذا انتظرنا إلى أن تداهمنا المخاطر ، فسيصبح العلاج متأخراً عن موعده وتستعصي العلة. ويحدث هنا مثلما يحدث في الحُمِّيّات غير المستقرة. فالأطباء يقلون أنها في بدايتها تكون صعبة التشخيص وسهلة العلاج بينما تكون سهلة التشخيص وصعبة العلاج وهي في نهايتها. وهذا هو الحال في أمور الدولة. فإننا نرى الخطر المتوقع قبل حدوثه (وهي صفة الحكماء من الرجال فقط) فيسهل علاجه. ولكن إذا تركناها تستفحل ويعرفها الجميع فلن يوجد لها أي علاج وهذا كله بسبب قصر النظر. ولهذا فإن الرومان كانوا يكتشفون الاضطرابات وهي لا تزال في المهد واستطاعوا دائماً أن يعالجوها، ولم يتيحوا لها أي فرصة لتزداد حتى يتجنبوا الحرب، وذلك لأن الحرب إذا بدأت فلا مفر منها ولا يمكن تأجيلها إلى لما هو في صالح الطرف الآخر. ولذلك فهم قد أعلنوا الحرب على "فيليب" و"انتيوكس" في بلاد الإغريق حتى لا يضطروا إلى محاربتهما في إيطاليا، على الرغم من أنه كان متاحا أمامهم تجنب كلتا الحربين. ولم يستجيبوا لنصائح من طلبوا منهم الانتظار والتريث لأن مرور الوقت قد يحمل معه خيراً أو شرا .

ولكن لنعُد لفرنسا لنرى ما إذا كانت قد فعلت مثل ذلك أم لا. ولن أتحدث عن الملك "شارل" ولكن عن الملك "لويس" حيث إنه يمكن تحليل ما فعله بطريقة أفضل، ولوضوح سياساته وممارساته. كما أنه قد حكم إيطاليا لفترة أطول. وسترى أيها الأمير أن الملك لويس فعل عكس كل ما يجب فعله للمحافظة على إقليم أجنبي. فقد دعا طمع "البنادقة" الملك "لويس" إلى دخول إيطاليا حيث طمعوا في أن يكسبوا نصف إقليم "لمبارديا" من وراء ذلك. وأنا لن ألوم الملك على مجيئه إلى إيطاليا ولا على الجزء الذي احتله منها، وذلك أنه

جاء رغباً في تثبيت أقدامه في إيطاليا ، وليس لمصادقة أهل البلـد. ولكـن علـى العكس تماماً، فقد أوصدت كـل الأبـواب في وجـه الملـك "لويـس" بسـبب هـذا السلوك، فاضطر لقبول أي تحالف يعرض عليه ، وكان من الممكـن لخططـه أن تنجح بسرعة شديدة لولا وقوع أخطاء أخرى منه أثناء تنفيذ تلك الخطط.

والملك إذن حين سيطر على "لمبارديا" قد استعاد فـوراً النفـوذ الـذي كـان الملك "شارل" قد فقده. فقد استسلمت له مقاطعة "جينوا" وأصبح "الفلورنسيون" أصدقاء له وتقرب إليه مركيز "مانتوا" وأدواق "فرارا" و"بنتيفولي" وأميرة "فورلي" وأمراء "فانزا وبيزاو وريميني وكاميرينو وبيمبينـو" وأهـل "لوكـا وبـيزا وسـينا". وقد عرف البنادقة في ذلك الوقت نتيجة طيشهم، ففـي مقـابل سيطرتـهم علـى عدد قليل من المدن في "لمبارديا" تركوا الملك يحكم اكثر من ثلثي إيطاليا.

وتستطيع أيها الأمير أن تدرك أنه كان من السهل على الملـك "لويـس" أن يستعيد النفوذ الفرنسي على إيطاليا لو أنه طبق القواعد الأساسية التي سـبق أن أشرت إليها وسيطر بحـزم علـى حلفائـه الذيـن كـانوا كثـيري العـدد واضحـي الضعف. فقد كانت مخاوفهم كبيرة سواء من الكنيسة أو من البنادقـة الذيـن لم يرضوا بالوجود تحت إمرته وسلطانه. وقد كـان حلفـاؤه الضعفـاء مضطريـن إلى الالتصاق به ، وكان بإمكانه ومن خلال مساعدتهم له أن يتغلب علـى مناوئيـه. لكن الملك "لويس" فعل عكس ذلك تماماً، فلم يكد يصل إلى ميلان حتـى سـاعد البابا "الكسندر" ليبسط نفوذه على إقليم روما. ولم يـدرك الملـك أنـه بذلـك قـد أضعف نفسه وابتعد عن حلفائه الذين لجئوا إليه ، وطلبـوا حمايتـه، كمـا أنـه ضاعف من نفوذ الكنيسة بإضافة قوته الوقتية إلى قوتها الروحية. وقد أدى هذا الخطأ الأول من الملك إلى سلسلة أخطاء أخرى. فقد اضطر إلى أن يـأتي بنفسـه إلى إيطاليا ليوقف نفوذ البابا "الكسـندر" عنـد حـدود معينـة ، ويمنعـه مـن أن

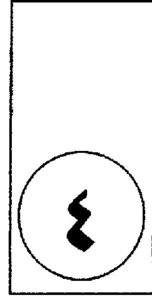
يكون حاكماً على "توسكانيا". لكنه لم يرض بأنه قد ساهم في زيادة قوة الكنيسة وفقد أصدقاءه، كما أنه كان يتمنى في ذلك الوقت أن ينال مملكة نابولي إلا أنه اقتسمها مع ملك أسبانيا، وبينما كان هو الوحيد المتحكم في إيطاليا أصبح الآن له شريكا ، فتلاشت الآمال المعلقة عليه وأصبح الناس غير مقتنعين به وباحثين عن غيره، وبدلاً من أن يأتي بملك موال له، تخلص منه وأتى بغيره قادر على طرده هو من هناك.

إن الرغبة في تملك الأشياء أمر طبيعي وعادي جداً. ومن يستطيع تحقيق ذلك يمدحه الناس ولا يلومونه ، ولكن من يريد التملك ولا يستطيع تحقيقه فإنه يود أن ينجح مهما كلفه الأمر فيقع في أخطاء ينال عنها لوم كثير. فإذا كانت فرنسا في ذلك الوقت وبقواتها الخاصة قادرة على السيطرة على نابولي فقد كان يجب عليها أن تفعل ذلك. وإذا كانت لا تستطيع فكان يجب عليها ألا تقتسمها. فإذا كان هناك عذر لاقتسام "لمبارديا" مع البنادقة وهو أن ذلك الاقتسام قد سمح للملك فرنسا بإيجاد موضع قدم له في إيطاليا، فإن التقسيم الثاني يحسب عليه، فلا توجد ضرورة لذلك.

وبهذا يكون الملك لويس قد ارتكب خمسة أخطاء: سحق القوى الصغيرة، وزاد من نفوذ قيام دولة واحدة في إيطاليا، وجاء بأجنبي قوي جدًا إلى داخل البلاد، ولم يذهب ليعيش هناك بنفسه، ولم ينشىء أي مستعمرات. ولو كان الملك لويس قد امتد به العمر ، لما أضير من هذه الأخطاء الخمسة كثيراً. إلا أنه ارتكب الخطأ السادس وهو تجريد البنادقة من الولاية. وقد كان ذلك ضرورياً فقط لو لم يكن قد دعم قوة الكنيسة ، وأتى بالأسبان إلى إيطاليا. وبما أنه قد فعل كل ذلك فكان من الأجدر به ألا يسعى إلى التخلص من البنادقة أبداً لأنهم إذا كانوا أقوياء وبإمكانهم أن يصدوا محاولات غزو لمبارديا، وذلك

لأنهم لن يقبلوا بأي شيء يحدث فيها ويخرجهم منها من جهة ، ومن جهة أخرى لن يقدم أي طرف آخر لنزعها من فرنسا وإعطائها للبندقية ، ولا يوجد من عنده الشجاعة ليهاجم الاثنين معاً.

وإذا كان هناك من يرى أن الملك لويس قد سلم "رومانا" إلى "الكسندر" ومملكة "نابولي" إلى الأسبان حتى يتفادى الحرب فإني أرد عليه بما ذكرته من أسباب وبأنه لا يجب علينا أن نترك الاضطرابات تثور في مقابل تجنب الحرب. فالحرب لم يتم تجنبها في هذه الحالة، ولكنها تأجلت فقط والتأجيل لن يضر أي أحد سواك أنت يا من تسعي إليه. أما إذا ادعى البعض أن هذا الموقف الذي اتخذه الملك لويس كان بسبب وعد مع البابا بأن يقوم بتلك الحملة لحسابه على أن يطلقه البابا من زوجته ويسند كاردنالية إلى "روهان"، فإني أرد على ذلك بما سوف أذكره فيما بعد عن وعود الأمراء وكيف ينبغي تناولها. وهكذا أضاع الملك "لويس" "لمبارديا" لأنه لم يفعل مثلما فعل الآخرون الذين استولوا على أقاليم وأرادوا الاحتفاظ بها. وهذا الأمر ليس معجزة ولكنه منطقي وطبيعي. وقد تحدثت في هذا الموضوع مع الكاردينال "روهان" في "ناتس". وقد قال لي الكاردينال: إن الإيطاليين لا يعرفون معنى الحرب. وأجبته بأن الفرنسيين لا يعرفون معنى السياسة، لأنهم لو عرفوا معناها لما سمحوا للكنيسة أن تصبح قوية جداً. والتجربة تقول : إن فرنسا هي سبب عظمة الكنيسة في إيطاليا وفي أسبانياً وهي أيضاً سبب سقوطها. ومن هنا يمكننا استنتاج قاعدة عامة لا تخيب إلا فيما ندر وهي "أن كل من يتسبب في أن يقوى غيره يُهلك نفسه، لأنه إنما يفعل ذلك إما بالحيلة ، أو بالقوة . وهاتان الصفتان هما موضع شك ممن يصل إلى السلطة .



لماذا لم تتمرد مملكة داريوس التي احتلها الاسكندر على خلفائه بعد وفاته ؟

بالنظر إلى الصعاب التي تكمن في الاستيلاء على دويلات جديدة، قد يتعجب البعض من أن الإسكندر الأكبر وقد أصبح سيد آسيا خلال أعوام قليلة، لكنه لم يكد يحتلها حتى وافته المنية. وكان من المتوقع أن تثور جميع الولايات إلا أن الولايات كلها لم تتمرد على خلفائه. وعلى أي حال، احتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم ولم يواجهوا أي متاعب فيما بعد سوى تلك المتاعب التي حدثت بين بعضهم البعض بسبب مطامعهم الشخصية.

وأرد على ذلك بأن تاريخ حكم الممالك سجل طريقتين للحكم: إما أن يكون الحكم متمثلاً في أمير وأتباعه الذين يعملون كوزراء بجانبه ، ويشاركون في السلطة بدعم وتأييد منه أو يكون الحكم لأمير ومعه عدد من البارونات الذين لا يعتمدون في قوتهم على الأمير وإنما على أصالة عائلاتهم القديمة. ولهؤلاء البارونات دويلات ورعايا خاصين بهم، ويعتبرهم رعاياهم أسياداً لهم ، ويرتبطون بهم ارتباطاً وثيقاً. وفي الدول التي يحكمها الأمير وأتباعه، يكون للأمير سلطات أكثر، حيث لا يوجد بالدولة من هو أعلى منه مقاماً، والآخرون الذين يأتمرون به هم مجرد وزراء ومسئولين بدولة الأمير، ولا يوجد من يعطيهم أكثر من حقهم.

وفي عصرنا الحالي يوجد مثالين لهذين النوعين وهما الأتراك وملك فرنسا. فالملكة التركية يحكمها حاكم واحد، والباقون هم خدامه، وهو قد قسم المملكة إلى سنجقيات يرسل إليها العديد من الإداريين ، ويغيرهم ، أو يستدعيهم حسب هواه. لكن ملك فرنسا محاط بعدد كبير من قدامى النبلاء. ومكانتهم معروفة جيداً لرعايا الدولة ، وهم أيضاً محبوبون منهم. ولهم امتيازات لا يستطيع الملك أن يحرمهم منها وإلا عرض نفسه للخطر. إن من ينظر إلى هاتين الدولتين سيجد أنه من الصعب جدًا الاستيلاء على الدولة التركية لكن السيطرة عليها سهلة جداً لأسباب عديدة وذلك في حالة هزيمتها. أما مملكة فرنسا فمن السهل جدًا إسقاطها لكن السيطرة عليها أمر شديد الصعوبة.

إن أسباب صعوبة احتلال المملكة التركية هي أن الغازي لن يجد ترحيباً من الأمراء الموجودين بالمملكة، ولا يأمل في أن تساعده في حملته حركات تمرد بزعامة هؤلاء الذين كانوا مقربين من الملك للأسباب المذكورة سابقاً. فمن الصعب إفساد هؤلاء القوم لأنهم جميعاً عبيد للسلطان ، وأتباع له ، وحتى لو تمكنا من إفسادهم، فلن نستفيد من ذلك كثيراً لأنهم لن يستطيعوا ضم الشعب إليهم للأسباب السابق ذكرها. لذلك فإنه على من يرغب في الهجوم على سلطان الأتراك أن يواجهم قواتهم المتحدة ، وأن يعتمد على قواته وليس على ما يمكن أن يحدث من تمرد يقوم به آخرون ضد السلطان. ولكن بمجرد أن يتمكن من هزيمته في معركة واحدة بحيث لا يمكنه تكوين الجيش مرة أخرى، فلن يكون هناك أي خطر عليه سوى من العائلة المالكة، فإذا أبيدت هذه الأسرة، فلن يوجد بعد ذلك من نخشاه. أما الآخرون الذين كانوا حول الملك

قبل النصر، فلا خوف منهم الآن، فإذا كان المنتصر لم يعلق أي أمل عليهم قبل النصر، فلا يجب أن يخشاهم بعد النصر.

والعكس صحيح في الممالك التي تحكم مثلما تحكم مملكة فرنسا، وذلك لأنه يمكن الدخول إليها باستمالة بعض بارونات المملكة، فلابد أن يكون منهم الساخطون ومحبو التغيير. وهؤلاء ـ وللأسباب السابق الحديث عنها ـ يمكنهم أن يفسحوا الطريق لك ، ويجعلوا لك النصر سهلا ميسرا .

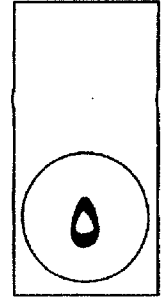
ولكن فيما بعد إذا أردت الاحتفاظ بهذا الملك فيما بعد فإن المشكلات التي ليس لها نهاية تبدأ في الظهور. وسيكون سبب المشكلات هم هؤلاء الذين ساعدوك والذين تعسفت معهم على حد سواء. ويصبح التخلص نهائياً من أسرة الأمير غير كاف، لأن النبلاء سيبقون ويتزعمون الثورات الجديدة. ولأنك لن تستطيع إرضاءهم أو القضاء عليهم، وستفقد الولاية عندما تحين أول فرصة لذلك.

والآن إذا تأملت طبيعة حكومة مملكة "داريوس" فإنك ستجدها مماثلة للمملكة التركية ، ولذلك كان على "الإسكندر" أن يسقطها بالكامل أولاً ويغزو جميع أراضيها، وبعد النصر وموت "داريوس" استتبت الأحوال في الولاية للإسكندر وذلك للأسباب التي ناقشناها فيما سبق. ولو أن خلفاءه ظلوا متحدين لما ثارت أي مشكلات ولعاشوا فيها في سلام ولكن مشكلاتهم قد حدثت فيما بين بعضهم البعض. فمن المستحيل إذن أن السيطرة على دول متحدة مثل فرنسا بمثل هذه السهولة وهذا هو سر الثورات التي قامت بين وقت وآخر ضد الرومان في أسبانيا وفرنسا واليونان. وذلك نظراً لوجود إمارات عديدة في تلك

الدول. ولم تستتب الأمور لحكم الرومـان المزعـزع إلا عندمـا انتـهى ذكـر هـذه الإمارات ومحيت وأصبح الرومان سادة لا بديل لهم. وعندما دب الخلاف بين الرومان كان في مقدور كل واحد منهم أن يعتمد على مساندة منطقتـه لـه حيـث كون سلطاناً لنفسه. لكن الرومان لم يتم اعتبارهم حكاماً هناك إلا بعد انقـراض الأمراء من الأسر الحاكمة القديمة.

فإذا نظرنا إلى هذه الأمور فليس لنا أن نعجـب للسـهولة الـتي سـيطر بـها الإسكندر على آسيا ، ولا للصعوبات التي لاقاها غيره ممـن فتحـوا أقـاليم مثـل "بايروس" وغيره كثير. لأن ذلك لا يعتمد علـى قـدرة الفـاتح سـواء عظمـت أم تضاءلت ولكن الأمر يتوقف على ظروف مختلفة.

* * * *



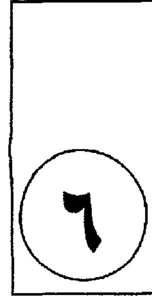
طريقة حكم المدن والممالك التي كانت تعيش قبل احتلالها في ظل قوانينها الخاصة

عندما تكون تلك الدول التي تم الاستيلاء عليها معتادة على الحياة الحرة في ظل قوانينها الخاصة، هناك ثلاث طرق للسيطرة عليها: فإما أن يلغيها الأمير أو أن يذهب بنفسه ، ويعيش هناك أو أن يسمح لها بالاستمرار في استخدام القوانين السابقة مع دفع الجزية. ونوجد داخل الدولة حكومة مكونة من عدد قليل ممن يحافظون على ولائها لك. ولأن هذه الحكومة التي شكلها الأمير تعرف أنها لا يمكن لها أن تستمر بدون رضائه وحمايته، فهي ستفعل كل ما في وسعها للحفاظ على هذا الرضا وهذه الحماية. ومن جهة أخرى فإن المدينة التي اعتادت الحياة بحرية يمكن السيطرة عليها من خلال مواطنيها أكثر من أي طريقة أخرى، وذلك إذا أردت أن تستمر هذه السيطرة.

ومثال ذلك هم الإسبرطيون والرومان حيث سيطر الاسبرطيون على أثينا وطيبة من خلال حكومة قليلة العدد، إلا أنهم فقدوا السيطرة عليها. بينما خرب الرومان كابو وقرطاجنة ونومانطة من أجل السيطرة عليها، لكنهم لم يفقدوها. وقد حاولوا السيطرة على اليونان بنفس الطريقة التي استخدمها الإسبرطيون تقريباً وذلك بتركها حرة تعيش في ظل قوانينها الخاصة، إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك. واضطروا إلى تخريب كثير من المدن بها حتى يضمنوا

الاحتفاظ بها، ففي الحقيقة لم تكن هناك طريقة أكيدة للإبقاء عليها سوى التخريب. ومن يصبح حاكماً لمدينة حرة ولا يدمرها فليتوقع أن تقضي هي عليه، لأنها ستجد دائما الدافع للتمرد باسم الحرية وباسم أحوالها القديمة. وهي أشياء لا تنسى لا بمرور الزمن ولا بما يناله أهلها من مزايا. ومهما فعل الحاكم ومهما احتاط للأمر فإن أهل المدينة سيستجيبون لندائها فوراً عند حدوث أي طارئ، وذلك مثلما حدث في بيزا بعد أن سيطر عليها "الفلورنسيون" واستعبدوها لسنوات عديدة. ولكن عندما تكون المدن أو الأقاليم قد ألفت الحياة في ظل أمير وأسرة حاكمة ثم تختفي هذه الأسرة تماماً، فإن هذه المدن قد اعتادت على الطاعة من جهة، ومن جهة أخرى لا يجدون أميراً لهم ، ولا يستطيعون الاتحاد تحت راية واحد يختارونه من بينهم ولا يعرفون حياة الحرية، لهذا فإنهم لن يقدموا على حمل السلاح بسرعة وسيتمكن الأمير من الانتصار عليهم بسهولة شديدة ومن دعم موقفه وتأمينه. لكن في الجمهوريات تكون الحياة أفضل والعداء أشد، كما أن الرغبة في الانتقام تكون أشد، فالناس لن تتخلى عن ذكريات حريتها القديمة بسهولة. لذلك فإن الطريقة الأكيدة هي إما أن نخربها ، أو أن نقيم فيها.

* * * *



حول الولايات الجديدة التي ضمها الأمير بقدراته وجيوشه

لا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة حديثة جداً سواء فيما يخص الأمـير أو الولاية وذلك في أثناء حديثي عن الولايـات الجديـدة. وذلـك لأن النـاس دائمـاً يسيرون في الدروب التي طرقها غيرهم، وأن تحاكي أعمـالهم أعمـال الآخريـن. والعاقل من الرجال لا يستطيع أن يتبع آثـار الآخريـن ، ويقلدهـم تمامـاً ولا أن يحقق ما حققوه مـن نجـاح وتميز. إلا أنـه إن لم يبلـغ حصتـهم مـن العظمـة والتميز فسيصيبه نفحة منها على أي حال. وهو بهذا يفعل مثلما يفعـل الرمـاة المحترفون الذين يصوبون إلى نقطة أعلى من النقطة التي يريدونها حينما يكـون الهدف بعيداً جداً وهم على علم بمدى الرمي الممكن للقوس الـذي يستخدمونه. وهم بالتصويب على ما هو أبعد يصيبون الهدف المقصود تماماً.

وعلى هذا الأساس أقول بـأن السيطرة علـى الأمـور في الولايـات الجديـدة تتفاوت تبعاً لقدرات من يستولي عليها. ولمـا كـان أي فـرد عـادي لا يصـل إلى مرتبة الإمارة إلا من واقـع قدراتـه الفائقـة أو حظـه السـعيد، فـإن أحـد هذيـن الأمرين يخفف ما يلقاه من مصاعب كثيرة، ومـع هـذا فـإن مـن لا يعتمـد علـى حسن الطالع يحفظ نفسه على أفضل حال. ومما يخفـف العـبء الجديـد عـن الأمير أيضاً هو إقامته في الإقليم الجديد، إذا لم يكن لديه غيره. أمـا إذا أردنـا

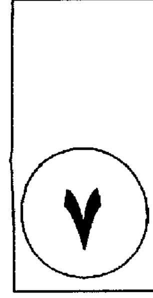
التحدث عن هؤلاء الحكام بفضل ما لديهم من قدرات عالية ، وليس بفضل حظهم السعيد، فسنجد أن أعظمهم جميعاً هو "موسى" عليه السلام و"كورش ورومولوس وتيسيوس" وغيرهم. وعلى الرغم من أننا لا ينبغي لنا أن نتحدث عن موسى لأنه رسول الله الذي نفذ ما أُمر به، إلا أنه يظل جديراً بالإعجاب لأنه ذو فضل أهله لأن يكون كليم الله سبحانه وتعالى. أما كورش وغيره ممن ورثوا الممالك أو أسسوها فإنهم جميعاً يستحقون الإعجاب. فما قاموا به من أعمال وما حققوه لا يختلف كثيراً عما قام به موسى عليه السلام رغم أنه كان رسولاً. وإذا ما تفحصنا حياتهم وأعمالهم لن نجد أنهم قد ركنوا إلى الحظ في أي شيء . لكن ما حصلوا عليه من فرص هو ما ساعدهم على صياغة ما حولهم فيما رأوه مناسباً. ولولا هذه الفرص لضاعت قدراتهم أدراج الرياح. وبدون تلك القدرات لما كان للفرص أي معنى.

وهكذا كان من الضروري لموسى أن يجد بني إسرائيل عبيداً في مصر وأن يضطهدهم المصريون، وذلك حتى يكونوا مستعدين للسير خلفه ليتخلصوا من العبودية. وكان من الضروري ألا يستطيع "رومولوس" البقاء في ألبا، وأن يترك في العراء يوم مولده حتى يصبح ملك روما ومؤسس تلك الأمة. وكان من الضروري أيضاً أن يجد "كورش" أن الفرس ساخطون على إمبراطورية الميديون، وأن يكون الميديون ضعفاء ومخنثين بسبب طول فترة السلم. وما كان لتيسيوس أن يظهر قدراته لولا أنه وجد أن الأثينيين مشتتون. فهذه الفرص قد سنحت لهؤلاء الرجال، وساعدتهم صفاتهم العظيمة على الاستفادة منها. وهم بذلك يزيدون من رفعة أوطانهم ويزيدونها فلاحاً وسعادة.

إن من يستفيدون من قدراتهم حتى يصبحوا أمـراء يحصلـون علـى الإمـارة بصعوبة، إلا أنهم يحافظون عليها بسهولة. والصعوبات التي تواجـهـهم في ذلك ترجع إلى حد ما إلى القواعد والتعديـلات الجديـدة الـتي يضطـرون إلى إدخالهـا حتى يستتب السلام في ولاياتهم. ويجب أن ندرك أنه لا يوجد أصعب من بـدء نظام جديد لتسيير الأمور وتنفيذه. فنجاحه مشكوك في أمره وليس هناك ما هو أخطر من التعرض لهذا الأمر. لأن من يريد الإصلاح لابـد لـه مـن أعـداء وهـم جميع من كانوا يستفيدون من النظام القديم، وهناك أيضاً من يؤيده بفتـور رغـم استفادتهم من النظام الجديد. ويرجع هذا الفتور ـ من ناحية ـ إلى خوفـهم مـن خصومهم الذين يساندهم القانون، ومـن ناحيـة أخـرى إلى أن النـاس لا تؤمـن بالجديد إلا بعد أن تجربـه فعـلاً. وعلـى هـذا فـإن المصلـح يهاجمـه خصومـه بحماس شديد في كل فرصة، بينما يدافع عنه الآخرين دفاعاً فـاتراً، حتـى أنـه يواجه خطراً كبيراً جداً وهو ما بـين أولئـك وهـؤلاء. لذلـك فإننـا إذا أردنـا أن نتناول هذه القضية بدقة، لابد لنا أن نعرف أولاً ما إذا كان المصلحون يعتمـدون على أنفسهم ، أم أنهم يعتمدون على الآخرين. وبعبارة أخرى: هل هم قادرون هلى استمالة غيرهم لينفذوا ما وضعـوه لهـم أم أنـهم يسـتطيعون فرضـه ؟ ففـي الحالـة الأولى لـن يحققـوا سـوى فـوزاً ضعيفـاً. ولا ينجـزون شـيئاً. أمـا إذا استطاعوا الاعتماد على سطوتهم ولديهم القدرة علـى اسـتخدام قوتـهم فإنـهم لا يفشلون إلا فيمـا نـدر. وبـهذه الطريقـة اسـتطاع جميـع الأنبيـاء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم. وذلك ـ بالإضافـة إلى مـا ذكرنـاه ـ يرجع إلى أن طبيعة البشر متقلبة. ومن السـهل تحفـيزهم لشـيء مـا ولكـن مـن الصعب استمرار هذا الحافز. ولذلـك يجـب أن نرتـب أمورنـا حتـى يمكننـا أن نستخدم القوة معهم لنردهم إلى الإيمان بما ارتدوا عنه. ولو كان كل من موسـى

ـ عليه السلام ـ وكورش وتيسيوس ورومولوس عزلاً من السلاح لما استطاعوا أن يجعلوا الآخرين يحترمون دساتيرهم لفترات طويلة، وهذا هو ما حدث في عصرنا الحالي مع الأخ جيرولامو سافونا حيث فشل فشلاً ذريعاً في تطبيق شريعته الجديدة عندما بدأ الكثير من الناس في الكفر به ولم يكن لديه القوة التي تمكنه من أن يجبرهم للعودة إلى الإيمان بما يقوم به. وعلى ذلك فإن من هم مثل هذا الرجل يجدون صعوبة كبيرة في شق طريقهم، فهم يقابلون جميع الأخطار في طريقهم، ولابد لهم من التغلب عليها بما يملكون من قدرات، ولكن بمجرد أن يتغلبوا عليها ويصلوا إلى مكانة عند قومهم ويسحقوا من يحسدهم عليها، يمكنهم أن يظلوا أقوياء مكرمين وسعداء.

ولكل هذه الأمثلة الواضحة التي ضربتها أضيف مثالا آخر أقل منها، وهو على أي حال مثال يمكن مقارنته بجميع الحالات المماثلة. إنه مثال "هيرو" السيراكوزي الذي أصبح أمير سيراكوز بعد أن كان مجرد فرد عادي. ولم يتدخل الحظ في ذلك مطلقاً لأن أهل سيراكوز الذين كانوا مضطهدين قد اختاروه رئيساً لهم، وقد ارتقى بما لديه من قدرات من هذا المركز إلى مرتبة الإمارة. وكما قال عنه الكتاب : "لم يكن ينقصه لكي يحكم ـ وهو مازال فرداً عادياً ـ سوى المملكة." وقد ألغى نظام الجندية القديم وأحل محله نظام جديد وتخلى عن جميع الأحلاف القدامى وعقد غيرها. وعندما أصبح عنده أصدقاء وجنود من اختياره أصبح قادراً أن يعتمد على ذلك وهو آمن. وبينما وجد صعوبة في الوصول إلى مكانته إلا أنه لم يتعب كثيراً في المحافظة عليها.



الممالك الجديدة التي يتم الحصول عليها بقوة الآخرين أو بالصدفة

إن من ارتفع من مكانة المواطن العادي إلى منصب الأمير بمحض الصدفة لا يواجه سوى متاعب قليلة حتى يصل لهذه المكانة ، إلا أنه يواجه كثيرا من الصعاب عندما يريد الحفاظ على هذا المنصب. وهم لا يجدون أي صعاب في طريق المناصب لأنهم يطيرون إليها. أما ما يجدونه من صعاب فإنها تحدث بعدما يستقرون فيها. ومن أمثال هؤلاء من حصل على دولة في مقابل المال أو تفضلاً ممن يمنحه هذا المنصب كما حدث في كثير من الحالات الإغريقية في مدن "أيونا وهيلسبونت"، وهم من جعلهم "داريوس" أمراء للسيطرة على هذه الأماكن من أجل سلامته وسلطانه. ومن أمثال من هؤلاء أيضاً الأباطرة الذين ارتفعوا إلى تلك المناصب برشوة الجيش ، حيث اعتمدوا اعتماداً تاماً على النوايا الحسنة لمن يساعدهم ، وعلى حسن طالعهم. وهما أمران لا يستمران طويلاً ولا يظلان ثابتين بنفس القدر بصفة دائمة. وهم لا يعرفون كيفية المحافظة على الولايات ولم يمروا بمواقف تمكنهم من ذلك. وإن لم يكن هذا الفرد العادي الذي عاش حياة عادية ذا عبقرية فذة ، فلن يعرف كيف يأمر وينهي. وهم في ذلك لن يستطيعوا الحفاظ على أنفسهم لأنهم لا يملكون قوات

تدين لهم بالولاء، إضافة إلى أن الدول التي تنمو سريعاً - مثلها في ذلك مثل أي شيء آخر ينمو سريعاً - لن تستطيع أن تثبت جذورها وتتعمق كما أنها تتدمر بسبب أول عاصفة تهب عليها . وهناك استثناء كما قلنا وهو أن يكون من وصل إلى الإمارة قادرا على اتخاذ خطوات يحافظ بها على ما ألقاه إليه حسن طالعه، ثم بعد ذلك يضع الأسس التي يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء.

وسوف أضرب هنا مثالين قد قفزا إلى ذاكرتي وهما يجسدان الوصول إلى الإمارة إما بالقدرة ، أو بحسن الطالع، وهذان المثالان هما: "فرانتشسكو سفورتسا" و"قيصر بورجيا". فقد أصبح "فرانتشسكو" دوق ميلانو بالوسائل المناسبة ، وبسبب قدراته، بعدما كان مواطنا عاديا . وبقليل من المعاناة حافظ على ما قد حصل عليه بعد مروره بصعوبات كبيرة. ومن جهة أخرى حصل قيصر "بورجيا" المعروف باسم دوق "فالنتين" على الملك بفضل نفوذ والده، وفقده عندما فُقد هذا النفوذ، وذلك على الرغم من أنه بذل كل ما يمكن أن يقوم به رجل حكيم ، حتى يوطد أقدامه في ولاية حصل عليها بسبب ما لغيره من قدرات وسلاح . ومن لم يُرْسِ قواعد البناء في وقتها المناسب يمكنه أن يفعل ذلك فيما بعد رغم ما في الأمر من خطر على البناء نفسه ، وما فيه من عناء على مهندس هذا البناء . ولو نظر المرء بعين الاعتبار إلى الإجراءات التي اتخذها الدوق فسوف يلاحظ قوة الأسس التي وضعها لسلطانه القادم، وتأمل هذه الإجراءات شئ لازم، فما قام به الدوق لا يفوقه شئ آخر، ولا يقلل من قيمته

أنه استخدم وسائل غير ناجحة، فهذا ليس خطأه، ولكنه كان بسبب سوء حظه الشديد ليس إلا.

وعندما أراد "الإسكندر" السادس أن يعلي من شأن ابنه الدوق كان عليه أن يمر بكثير من الصعاب في الحاضر والمستقبل. وأول ما واجهه من مشكلات هو أنه لم يجد سبيلاً لجعله حاكماً لأي ولاية لا تخص الكنيسة. وكان يعلم أن محاولته لكي يسيطر على مدن للبابا لن ترضي دوق ميلانو والبنادقة. وذلك لأن "فائنزا وريميني" كانتا تحت حماية البنادقة في ذلك الوقت. بالإضافة إلى أنه لاحظ أن القوات المسلحة في إيطاليا وخاصة تلك القوات التي يمكنها أن تخدمه كانت تحت إمرة أولئك الذين يخشون عظمة البابا، وهو بالتالي لا يمكنه أن يعتمد عليهم وذلك لأنها جميعاً كانت تحت قيادة الأورسيني وكولونا واتباعهما. ولذلك كان من الضروري بالنسبة له أن يجعل الحالة الراهنة في إيطاليا تضطرب، وأن يثير الفتن في الولايات الإيطالية حتى يضمن السيادة على جزء منها. وقد كان ذلك يسيراً بالنسبة له حيث وجد أن البنادقة –وبسبب دوافع أخرى– قد دعوا الفرنسيين إلى دخول إيطاليا. وهو لم يعرض ذلك فحسب بل إنه سهله بإنهاء الزواج الأول للملك لويس. وهكذا جاء الملك إلى إيطاليا بمساعدة البنادقة ورضاء الاسكندر. ولم يكد الملك يصل إلى ميلان حتى أخذ منه البابا قوات لحملته على رومانا التي أمكن فتحها بسبب شهرة الملك. وبعدما تم له ما أراد وسيطر على "رومانا" وهزم "الكولونيين"، أعاقه عن الاحتفاظ بها والتقدم أمران اثنان: أولهما أنه شك في ولاء قواته، وثانيهما هو

النية الفرنسية بمعنى أنه خشي أن تتخلى عنه قوات الأورسيذي التي سبق له استخدامها وحققت له النجاح ، وهو يخشى في نفس الوقت أن تكون سبباً لفشله. فهي قد لا تعوقه عن التوسع فقط بل قد تسلبه ما فتحه حتى الآن. كما خشي أن يفعل الملك نفس الشيء . وكان دليله على ذلك أنه بعدما سيطر على "فائنزا" أغار على "بولونيا" فتخلف عنه "الأورسيني". أما بالنسبة للملك فقد تنبه لنواياه عندما استولى على دوقية "أوربينو" وهاجم "توسكانيا" فأوقفه الملك عن هذه الحملة. ومنذ ذلك الحين عزم الدوق على ألا يعتمد على أسلحة غير أسلحته، أو أن يعتمد على حسن طالع يخص أحدا غيره، وكان أول ما فعله هو إضعاف أحزاب "الأورسيني" و"الكولونا" في روما وذلك بأن جذب إلى صفه جميع أتباعهما من الأعيان، وجعلهم من تابعيه بأن أجزل لهم العطاء وعينهم في مناصب ، وولاهم أعمالاً كل حسب قدره، وخلال شهور قليلة انقطعت صلتهم بأحزابهم والتصقوا بالدوق بشدة. وبعد أن سحق زعماء الكولونا. انتهز الفرصة لكي يبطش بزعماء الأورسيني حين واتته الفرصة فأحسن استغلالها. وكان الأورسينيون حين رأوا أن عظمة الدوق والكنيسة ستعني سقوطهم قد دعوا إلى عقد مجلس في "ماجيوني". وفي ذلك الحين قامت ثورة "أوربينو" وحدثت اضطرابات في "رومانا"، وظهرت أمام الدوق أخطار لا تحصى، لكنه استطاع أن يتغلب عليها كلها بمساعدة الفرنسيين . وبعد أن استعاد سمعته لم يعد يثق بالقوات الفرنسية أو أي قوات أجنبية ولم يغامر بالتحالف مع أي منها. فلجأ للخداع فأخفى أغراضه الحقيقية جيداً ، حتى سالمه الأورسينيون ، وذلك بأن نزع كل ما كان لدى ممثلهم السيد "باولو" من

شكوك بأن أغدق عليه بالمال والملابس والجياد حتى أغرتهم سذاجتهم ، فأتوا إلى "سنجاجليا" ووقعوا في قبضته. وبهذا تخلص الدوق نهائياً من هؤلاء الزعماء بهذه الطريقة ، وجعل من أنصارهم أصدقاء له ، ووضع الأسس القوية جداً لنفوذه. ثم استولى على كامل "رومانا" مع دوقية "أوربينو"، وكسب رضا سكانها الذين بدءوا يشعرون بمميزات حكمه.

وهذا الدور جدير بأن يلاحظه الآخرون ويسيرون على منواله ولن أتوقف عن الحديث عنه. فعندما سيطر الدوق على "رومانا" كان حكامه السابقون ضعفاء وكانوا ينهبون الرعية بدلاً من أن يحكموهم، ويعملون على فرقتهم وليس توحيدهم، حتى أصبحت المقاطعة فريسة للصوصية ، والسلب ، وجميع أنواع الفوضى. لذلك رأى الدوق أن إيجاد حكومة صالحة فيها هو أمر مهم جداً ، حتى يجعل أهلها مسالمين ومدينين لحكمه بالطاعة. لذلك فقد ولى عليهم "روميرو دي أوركو" وكان رجلاً قاسياً ، وقادراً ، ومنحه سلطات كاملة. فنجح "روميرو" نجاحاً كبيراً في توحيد البلاد وتنظيمها في وقت قصير. إلا أن الدوق قد رأي أن السلطة المتناهية غير مناسبة ، وأنها من الممكن أن تولد الكراهية في نفوس الناس، فأنشأ داراً مدنية للعدل برئاسة رجل ممتاز وعينت كل مدينة محاميا خاصا بها في هذه الدار. ولما علم أن ما حدث من قسوة بالأمس القريب قد ولد في النفوس مقداراً من الكراهية قرر أن يعلن للجميع أن ما حدث لم يكن بسبب أوامر أصدرها وإنما بسبب ميول الوزير الفظة، وذلك لكي يطهر نفوس الناس ويكسبها تماماً لصالحه. وعندما حانت الفرصة قتل

"روميرو" وشطر جسده إلى نصفين، ثم ألقاه ذات صباح في ميدان عام في "شيزينا" وبجانبه قطعة من الخشب وسكين ملطخ بالدماء، فذهل الشعب لوحشية هذا المنظر إلا أنه رضي بذلك.

ولنعد إلى حيث توقفنا، الآن أصبح الدوق قوياً ، وفي مأمن من الأخطار الراهنة ولديه سلاحه الخاص ، وقد قضى ـ إلى حد كبير ـ على القوى المجاورة التي قد تؤذيه. ولم يبق أمامه الآن إذا أراد أن يواصل الفتح سوى أن يفوز باحترام فرنسا له. حيث علم أن الملك ـ الذي اكتشف خطأه مؤخراً ـ قد لا يمد يد العون إليه أبداً. لذلك بدأ في البحث عن أحلاف جديدة وفي مراوغة فرنسا حول الحملة التي كان الفرنسيون يقومون بها تجاه نابولي وضد الأسبان الذين كانوا يحاصرون جيتا. كان يريد أن يستوثق منهم، وكان من الممكن أن يوفق في ذلك بسرعة لو أمد الله في عمر الإسكندر.

وكان هذا هو ما فعله الدوق ويخص الحاضر. أما فيما يخص المستقبل فقد خشي أن يعاديه وريث جديد لولايات الكنيسة ، وربما يسعى لأن يسلب منه ما قد منحه إياه الإسكندر. ولذلك حاول اتقاء هذا الأمر بأربعة طرق وهي: أولاً: قضى قضاء مبرماً على كل من تجري في عروقه دماء الأسر الحاكمة التي اغتصب ملكها. حتى لا يمكن للبابا أن يستغل أي فرصة ضده. وثانياً: كسب جميع نبلاء روما إلى صفه ليكبح بهم جماح البابا. وثالثاً: لم يدخر وسعاً في السيطرة على مجلس الكرادلة. ورابعاً: حصل قبل وفاة البابا على نفوذ كبير يمكنه من أن يصد أول هجوم قد يشن عليه. وعند وفاة البابا كان الدوق قد

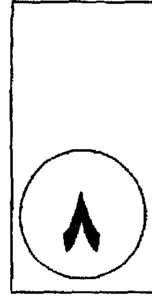
أنجز الأمور الثلاثة الأولى وعلى وشك إنجاز الأمر الرابع. فقد قتل كثيرا ممن استطاع الوصول إليهم من الحكام السابقين وفر منهم عدد قليل جداً، وتمكن من ضم نبلاء روما إلى صفه وكان له نفوذ كبير في مجلس الكرادلة. أما بالنسبة لضم أراض جديدة ، فقد وضع لنفسه خطة لكي يصبح سيد "توسكانيا" وقد كان ملك "بورجيا" و"بيومبينو" منذ فترة وجيزة كما فرض حمايته على "بيزا" وقد سيطر عليها عندما لم يعد يخشى الفرنسيين (وذلك لأن الأسبان قد جردوا الفرنسيين من مملكة "نابولي" بطريقة جعلت كلا الطرفين يخطب وده). ثم استسلمت له "لوكا وسيينا" دفعة واحدة بسبب كراهيتهم للفلورنسيين من جهة والخوف من جهة أخرى، فلم تكن تملك أي موارد. فإذا كان الدوق قد حقق نجاحاً مثلما الذي حققه عام وفاة الاسكندر، لكان له من القوة والقدرة ما يمكنه من أن يحافظ على نفسه دون الحاجة للاعتماد على قوة الآخرين وحسن طالعهم. لكن الإسكندر مات بعد خمس سنوات فقط من إشهار قيصر بورجيا لسيفه لأول مرة ، وتركه وهو لم تستتب له الأمور إلا في "رومانا". أما بقية الأنحاء فهي معلقة في الفضاء بين جيشين قويين جداً ومعاديين له. وكان يعاني أيضاً من مرض عضال. إلا أن الدوق كان لديه القدرة والحيوية ويعرف جيداً كيف يكسب تأييد الرجال وكيف يقهرهم. وقد كانت قواعد ملكه التي وضعها في فترة وجيزة قوية جداً، لدرجة أنه لولا وجود هذين الجيشين على مقربة منه واعتلال صحته لأمكنه التغلب على بقية الصعاب. وتتضح قوة الأسس التي وضعها في انتظار "رومانا" له لمدة تزيد عن الشهر رغم كونه نصف ميت في روما، إلا أن مركزه ظل قوياً. وعلى الرغم من أن "الباجليوني والفيتلي

والأورسيني" قد دخلوا إلى روما، إلا أنهم لم يجدوا فيها من يقف ضده ، فقد كان في استطاعة الدوق على أقل تقدير أن يحول بين كرسي البابوية ، وبين من لا يرغب هو فيه، إذا لم يكن قادراً على تنصيب من يشاء. وربما تيسرت له كل هذه الأمور لو كان سليما وبصحة جيدة حين توفى الإسكندر. ولقد أخبرني في يوم انتخاب البابا "يوليوس الثاني" بأنه قد فكر في كل ما يمكن أن يحدث عند وفاة أبيه ، واحتاط لجميع الأمور عدا أمر واحد لم يدر بخلده وهو أنه هو نفسه سيكون قريبا من الموت في ذلك اليوم.

وعندما أراجع أعمال الدوق لا أجد ما ألومه عليه بل إني أجد لزاماً علي أن أرفعه كمثال يجب أن يحتذيه كل من حصل على سلطان بسبب ما قامت به قوات غيره وحسن طالعهم. وهو بسبب شجاعته العظيمة وطموحه الكبير لم يكن أمامه أن يفعل غير ما فعل، وما أحبط خططه إلا قصر حياة "الإسكندر" ومرضه هو شخصياً. لذلك فإن على كل من يعد الضروريات لتأمين إمارته الجديدة أن يؤمن نفسه ضد أعدائه ، وأن يكسب الأصدقاء، وأن تكون له الغلبة بالقوة أو بالخديعة. وأن يحبه الشعب ويخشاه. حيث يسير جنوده خلفه ويحترموه . وأن يسحق من يستطيع أن يؤذيه ، أو من الممكن أن يؤذيه. وأن يستبدل القديم من الأوضاع بكل ما هو حديث. وأن يكون صارماً وشفوقاً في نفس الوقت، كريم الخصال واسع المدارك. وأن يلغي نظام الجندية القديم ويحل محله نظاماً جديداً. وأن يحافظ على صداقته مع الملوك والأمراء بطريقة تسعدهم إذا فعلوا ما يفيده، وتخيفهم منه إذا ناله منهم مضرة. ومثل هذا

الأمير لن يجد مثالاً يحتذيه مثل أعمال هذا الدوق. إلا أن النقد الوحيد الذي يمكن أن يوجه لهذا القيصر هو انتخاب "جوليوس الثاني" للبابوية، حيث أساء الاختيار. وذلك لأنه ـ كما قيل ـ إن لم يكن قادراً على انتخاب بابا يوافقه هو، فكان عليه ألا يسمح لأي كاردينال بأن يصل للبابوية. كما كان من واجبه ألا يسمح بانتخاب أي كاردينال سبق أن أساء هو إليه، أو من قد يخشاه الدوق إذا وصل إلى كرسي البابوية. إن من أساء إليهم القيصر هم: "القديس بطرس والقديس جورجيو وآسكانيو". وكان أي واحد من غير هؤلاء جميعاً سيخشاه لو انتخب للبابوية إلا "روهان" والكرادلة الأسبان لأن الأسبان يخشونه لما بينه وبينهم من صلات والتزامات. أما "روهان" فقد كان على قرابة بالملك وله نفوذ عظيم. ولهذه الأسباب كان على الدوق أن ينصِّب في كرسي البابوية واحداً من الأسبان، وإن لم يستطع كان عليه أن يوافق على "روهان" وليس على القديس بطرس. إن من يظن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء يخطئ خطأ جسيماً، ولهذا فإن الدوق قد أخطأ في هذا الاختيار، وكان هذا الخطأ هو سبب هلاكه التام.

* * * *



حول من وصلوا لمنصب الأمير بالخديعة

بما أنه لا تزال هنـاك طريقتـان للوصـول إلى الإمـارة دون الحاجـة لحسـن الطالع أو استخدام القدرات ، ولا ينبغي أن نهمل هاتين الطريقتين. إن إحـدى الطريقتين يمكن مناقشتها بتعمق لو أننا نتحدث عن الجمهوريات. وهذا عندما يحصل فرد من عِلية القوم على مركز الإمارة باستخدام أساليب حقيرة ومشينة، أو عندما يصبح أحد المواطنين أميراً على دولته التي يعيش فيها بناء على رضى من المواطنين. وعندما أتحدث عن هذه الطريقة، سـأعطي لسمو الأمـير مثـالين أحدهمـا قديـم ، والآخـر حديـث دونمـا توضيـح لميزاتـهما، حيـث إن مجـرد ذكرهما سيكون كافياً لمن يضطر لمحاكاتهما.

لم يـبزغ نجـم "أجـاثوكل الصقلـي" مـن بـين عليـة القـوم ليعتلـى عــرش "سراكوزا" بل إنه جاء من قاع أقل طبقات المجتمع. فـهو ابـن صـانع فَخَّـار، وقد عاش حياة بالغة التعاسة خلال فـترات حياتـه المختلفـة. وكـان ذا جسـد كبير وعقل مستنير ودهاء شديد. وعندما انضم إلى صفـوف الجيـش تـدرج فيـه بسرعة، ثم قـرر أن يصبـح أمـيراً علـى "سـراكوزا" بـالقوة ، ودون انتظـار لأي خطوات دستورية متبعة في الجمهورية آنذاك. فاتفق مع "هاميلكار القرطاجني" الذي حارب معه في غزو "صقلية"، ثم اسـتدعى مجلـس الشـيوخ في "سـراكوزا" كما لو كان سيشاورهم في أمر من الأمور الهامة الـتي تتعلـق بالجمهوريـة، وأمـر

باغتيال جميع أعضاء مجلس الشيوخ ، وجميع من حضر الاجتماع من علية القوم والأعيان. ثم نصب نفسه أميراً بعد قتلهم دونما أي عصيان مدني. ورغم أنه تعرض للغزو والحصار مرتين من جيوش "قرطاجنة"، إلا أنه استطاع الدفاع عن المدينة، كما أنه استطاع أيضاً أن يغزو بجزء من جيشه بلاداً في شمال أفريقيا. ثم يعود منها بجنوده ليرفع الحصار عن "سراكوزا". كما أنه أوصل "القرطاجنيين" إلى وضع محرج جداً جعلهم مضطرين إلى التحالف معه تاركين له حكم صقلية. وعندما نتناول أعمال هذا الرجل وصفاته لن نجد فيها أي دور واضح لحسن الطالع. وذلك لأنه –وكما أسلفنا– لم يصل بفضل أي شخص ساعده ولكنه تدرج فقط في المناصب العسكرية، وواجه آلاف الصعوبات والمخاطر إلى أن وصل إلى منصب الأمير الذي حافظ عليه فيما بعد بشجاعة وتضحيات كثيرة. لكن قتل المواطنين لا يعتبر من الفضائل، كما أن التغرير بالأصدقاء ، وفقدان العقيدة ، والرحمة ، والدين يمكن أن تصل بنا إلى القوة وليس إلى المجد. وإذا كانت فضائل "أجاثوكل" المتمثلة في شجاعته في مواجهة الأخطار وعظمته عند مواجهة المشكلات ترفعه إلى مصاف القادة الناجحين، فإن قسوته وبربريته وانعدام الإنسانية عنده وأعماله الوحشية التي لا تحصى لا ترفعه إلى مصاف المشاهير. ولا نستطيع أن نقول : إنه قد وصل إلى ما وصل إليه بالفضائل ، أو بحسن الطالع.

وفي عصرنا الحالي، وعند تنصيب البابا "الإسكندر السادس"، كان "أولفرتو دافرمو" طفلاً صغيراً يتيماً في رعاية خاله "جيوفاني فوجلياني"، وقد رعاه خاله ورباه ، ثم أرسله في ريعان شبابه ليعمل كجندي ضمن قوات "باولو فيتلي" وذلك كي يتمكن ـ بعد حصوله على التدريب المناسب ـ من الوصول إلى رتبة

عسكرية عالية. وبعد وفاة "باولو حارب "أولفرتو" تحت إمرة أخيه "فيتلوزو". وخلال فترة زمنية قصيرة وبسبب ذكائه الحاد ونشاطه الجسدي والعقلي أصبح أحد قادة القوات. لكنه كان يعتقد أنه من العبودية أن يعمل تحت إمرة آخرين فقرر أن يكون أميراً على مسقط رأسه "فيرمو" وأن يحتلها بمساعدة أهلها الذين فضلوا العمل تحت إمرته من أجل تحرير مدينتهم ، كما ساعده أيضاً "البنادقة". فكتب رسالة إلى خاله "جيوفاني فوجلياني" قال له فيها : إنه بعد أن تغرب سنوات عديدة عن مدينته يود العودة إليها لأنه يريد أن يراه ويرى المدينة، حتى يتمكن من تفحص أحوالها قدر الإمكان. ولأنه قد كافح من أجل الوصول إلى المجد، لذلك فإن مواطنيه يجب أن يعرفوا كيف أنه لم يضيع وقته هباء. لذلك فإنه سيصطحب معه مائة من الفرسان وهم من أتباعه وأصدقائه وطلب من خاله أن يعلن ذلك على الملأ حتى يستقبله مواطنو "فيرمو" استقبالاً يكرمه باعتباره أيضاً تلميذا لهذا الخال. ولم يخفق الخال "جيوفاني" في عمل ما يلزم لاستقبال ابن أخته وفرسانه أعظم استقبال، فاستقبله أهالي "فيرمو" أعظم استقبال وآواه هو وفرسانه في بيته. وبعد أن مضت عدة أيام أعد فيها خطة الخديعة دعا "أولفرتو" خاله "جيوفاني" وكل علية القوم في "فيرمو" إلى مأدبة كبيرة. وبعد الطعام والشراب والتسلية المعتادة في مثل هذه المآدب، تطرق "أولفرتو" ببراعة شديدة للحديث عن عظمة البابا "الإسكندر" وابنه قيصر "بورجيا" وقد استجاب خاله والحضور للحديث. إلا أنه هب واقفاً وقال فجأة إن الحديث عن مثل هذه الأمور يجب أن يكون في مكان مناسب وانسحب إلى غرفة جانبية تبعه إليها خاله جيوفاني وجميع الحضور. وما أن جلسوا في مقاعدهم حتى اندفع إليهم الجنود من أماكن اختفائهم وقتلوا الجميع بما فيهم "جيوفاني". وبعد هذه المذبحة ركب "أولفرتو" حصانه مع جنوده وسار عبر

شوارع المدينة إلى قصر الحاكم وحاصره وأجبره على تكوين حكومة نصب نفسه أميراً عليها. وكان جميع من قتلهم يستطيعون إفساد هذا الموقف لو ظلوا أحياء. كما أنه حصن نفسه بالجديد من الأنظمة سواء المدنية أو العسكرية بطريقة تجعله لا يأمن على نفسه فقط خلال عام واحد يقضيه في مدينة "فيرمو" ، ولكنه يصبح أيضاً مصدر خوف لجميع جيرانه. وقد كان من الصعب الإطاحة به لولا أن قيصر "بورجيا" قد خدعه عندما سيطر على الأورسيني وسنجاجليا حيث قبض عليه بعد عام واحد مما ارتكبه من فضائع. وأعدم هو و"فيتلوزو" الذي علمه الوحشية والتجبر.

وقد يتعجب البعض من أن أجاثوكل والآخرين من أمثاله يستطيعون البقاء في بلادهم لعدة سنوات بعد العديد من الجرائم الوحشية، ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد الأعداء من الخارج دون أن يثور عليهم رعاياهم، على الرغم من أن غيرهم لم يستطع الحفاظ على منصبه في وقت السلم وليس وقت الحرب. وأنا اعتقد أن ذلك سببه القدرة على استعراض القسوة بطريقة مناسبة. فحسن ارتكاب الجريمة القاسية (إذا كان بإمكاننا استخدام كلمة "حُسن" عند الحديث عن النوايا الشريرة) يمكن من جني الثمار فيما بعد. أما عندما ترتكب هذه الفظائع بطريقة خاطئة فإنها تزيد من أعداد من يعارضوننا مع مرور الوقت ، ولا تقضي عليهم. ومن يستخدم هذه الطريقة الأولى مثل أجاثوكل يمكنهم علاج أخطائهم بطريقة ما. أما بالنسبة للآخرين الذين يستخدمون الطريقة الثانية فمن الصعب عليهم الحفاظ على أنفسهم واستمرارهم.

ومن الملاحظ إذن أنه عندما نستولي على ولاية، فإنه يجب على المنتصر أن يخطط لجميع جرائمه مرة واحدة حتى لا يضطر للعودة إليها في وقت آخر.

وأن تكون له قدرة على اتخاذ تغييرات جديدة تؤكد للعامة الحرص على مصلحتهم ليكسبهم إلى صفه. ومن يفعل غير ذلك عن جبن أو بناء على نصيحة من حوله سيظل من المفروض عليه أن يقف وفي يده الخنجر، ولن يتمكن أبداً من الاعتماد على رعاياه، لأنهم لن يثقوا به ، بسبب كثرة مشكلاته وأخطائه . وإذا كانت الأخطاء لابد واقعة فيحسن أن تكون دفعة واحدة حتى تكون أقل تأثيراً من واقعات متعددة تبقي آثارها. أما المزايا فيجب إعطاؤها للرعايا جرعة جرعة حتى يستمتعوا بها ويشعروا بفائدتها. وقبل كل شيء لابد للأمير أن يعيش وسط رعيته بطريقة لا يؤثر فيها حدوث حادث له فيخرجه عما يخطط سواء كان حادثاً مؤلماً أو حادثاً سعيداً. وذلك لأنك لا تكون في هذا الموقف موفقاً إذا استخدمت الشدة، وإن فعلت الخير لن تجني من ورائه أي فائدة، لأنه سيؤخذ على أنه اضطرار وبلا أي فائدة.

* * * *

٩ حول الإمارات المدنية

ونصل الآن إلى الحالة التي يصبح فيها المواطن أميراً بناء على رغبة أقرانه من المواطنين، وليس بالجريمة أو العنف الذي لا يحتمل، وقد يسمى هذا النوع بالإمارة المدنية. وهو نوع لا يمكن الوصول إليه لا بحسن الطالع ، ولا بالقدرات ، ولكنه يعتمد فقط على مكر يسانده حسن الطالع، وذلك لأن الإنسان يبلغ هذا المركز ، إما برغبة من جموع الشعب ، أو بتأييد من الطبقة الأرستقراطية، وهما جماعتان توجدان في كل مدينة أياً كانت، وهما متعارضتان بالطبع وهذا التعارض نتيجة لمحاولة عامة الشعب تحاشي تعسف الطبقة الأرستقراطية ، ومحاولة هذه الطبقة أن تسيطر على الشعب وتبطش به. وينتج عن هاتين المصلحتين المتعارضتين في المدينة نتيجة واحدة من ثلاث نتائج: إما حكم مطلق أو حكم حر أو فوضى. حيث يتمكن الشعب أو الطبقة الأرستقراطية من تكوين الحكومة الأولى ، والأمر يتوقف على ما يواتي من فرص لأي من الطرفين. فالنبلاء عندما يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحداً منهم ليصبح أميراً يمكنهم أن يحققوا مشروعاتهم في ظل سلطانه. ومن جهة أخرى يسعى الشعب إلى أن يرفع من بينه أميراً حينما لا يستطيع مقاومة النبلاء. وهو أمير يصنعه الشعب ليحتمي بسلطته. ومن يصبح أميراً بمساعدة النبلاء يعاني من مشكلات كبرى في سبيل الحفاظ على سلطانه أكثر من الذي يرفعه الشعب. كما أنه سيجد حوله كثيرين يعتبرون أنفسهم

أنداداً له. ومن هنا فهو لا يستطيع قيادة الآخرين وتوجيههم كما يريد. أما من يرفعه الشعب إلى منصب الأمير، فإنه يجد نفسه متفرداً والجميع يسعى لخدمته عدا نفر قليل. كما أن المعاملة العادلة لن ترضي عنه طبقة النبلاء في حين أن نفس الأمر سيرضي عامة الشعب بسرعة. فالعامة يرضون بالعدل بينما النبلاء يرغبون في التعسف والبطش. وإضافة إلى ما سبق فإن الأمير لن يستطيع أن يتأكد من أن شعبه يكرهه لكثرة العدد. لكنه من الممكن أن يعرف ذلك في طبقة النبلاء لأنهم قلة. وأسوأ ما يمكن أن يحدث للأمير من شعب يكرهه هو أن يتخلى عنه، لكن النبلاء ينشطون لمقاومته عندما يعادونه، بالإضافة إلى تخليهم عنه. ولما كان النبلاء بعيدي النظر أكثر من الشعب وأشد منه مكراً فهم دائماً قادرون على تخليص أنفسهم بالانضمام إلى من يتوقعون له الغلبة في الوقت المناسب. والأمير مضطر للحياة بين أفراد الشعب دون حاجة للطبقة الأرستقراطية، فبإمكانه أن يوجدها ، أو أن يقضي عليها في أي وقت، وأن يحسن من مركزها في المجتمع ، أو يجردها منه كما يحلو له.

وحتى أوضح هذا الأمر أكثر أقول: يجب علينا أن نتناول طبقة النبلاء بأسلوبين مختلفين، أي أنهم إما أن يحكموا بطريقة تجعلهم يعتمدون عليك تماماً أو أن يتركوا. فإذا ما كانوا محكومين تماماً ، ولم يصبهم الجشع فيجب عليك أن تكرمهم وتحبهم. أما من يبتعد عنك ، فيجب معاملته بإحدى الطريقتين: فإذا كانوا يفعلون ذلك إحجاماً وجبناً، فليس لك أن تخشاهم في الضراء، ومن الممكن أن تستفيد من أهل الرأي منهم خاصة، كما أنهم يشرفونك في السراء. أما أولئك المبتعدون عنك لغرض معين، فهذا يعني أنهم ذوو طموحات، وأنهم يفكرون في أنفسهم ولا يفكرون فيك. لذا يجب على الأمير أن

يحترس منهم. وأن يعتبرهم أعداء غير ظاهرين يمكنهم المساهمة في سقوطه وقت الشدة.

ولهذا يجب على أي أمير يرفعه الشعب ، وينصبه عليه أن يحافظ على محبته له مهما كلفه ذلك، وإن كان سيجده أمراً سهلاً. لأن الشعب لا يريد شيئاً سوى العدل. أما من وصل إلى منصب الإمارة بمساعدة النبلاء وضد إرادة الشعب. فعليه أولاً أن يسعى لنيل رضى الشعب عنه. وهو أمر سهل المنال لو أنه دافع عن الشعب. ولما كان الناس لا ينسون فضل من لا يتوقعون منه إلا الشر، فإنهم سيميلون نحوه بسرعة وسينال تأييدهم أسرع مما لو كان قد ارتفع لمنصب الأمير بمساعدتهم له. ويستطيع الأمير أن ينال رضا شعبه بالعديد من الطرق التي تختلف باختلاف الظروف، وهي لا تخضع لقاعدة ثابتة ولهذا فلن أتحدث عنها. ولا أستطيع سوى أن أقول : إنه يجب عليه أن يكسب صداقة الشعب، وإلا فلن يجد لنفسه ملاذاً في حالة الخطر.

وقد صمد "نابيس" أمير "إسبرطة" لحصار بلاد اليونان جميعها ، وجيش روماني مظفر، ودافع عن وطنه ضدهم. وصان بلاده ، وحين لاح الخطر اكتفى بأن تأكد من ولاء فئة قليلة، وما كان ذلك يكفيه لو أن شعبه يكرهه. ولا أظن أن أحداً يمكنه أن يخالفني بناء على الحكمة التي تقول :"من يبني على الشعب يبني على الطين." وذلك لأن هذه الحكمة يمكن أن تطبق على الفرد العادي الذي يعتمد على الناس ، ويقنع نفسه بأنهم سيخلصونه من بطش الأعداء به. ففي مثل هذه الحالة يجد الإنسان نفسه مخدوعاً مثلما حدث "لجراكي" في "روما" و"لجورجيو سكالي" في "فلورنسا". فالشعب لا يخدع أميراً يدعم ولايته له بالشجاعة والاستبسال هو قوي القلب ، ولا يتوانى عن

الاستعداد بكل ما أوتي من قوة، فهو يستطيع أن يستنهض شعبه بعد أن يكون قد احسن إرساء قواعد الولاية.

ولا يحيق الخطر بهذه الولايات إلا إذا تحول الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مستبد مطلق. والحكام المطلقون إما أنهم هم القادة، أو أنهم يستخدمون ولاة لهم، ومركزهم في هذه الحالة الأخيرة يكون أكثر ضعفاً، وذلك لأنهم يكونون تحت رحمة من عينوهم من ولاة حيث يستطيعوا تجريدهم من ملكهم. سواء عملوا ضدهم ، أو خرجوا على طاعتهم، خاصة إذا حدث ذلك في وقت الشدة. وفي مثل هذه الحالات من الخطر لا يستطيع الأمير أن يفرض سلطانه المطلق، وذلك لأن المواطنين لن يستطيعوا طاعة أوامره في حالة الطوارئ وهم من ألفوا تلقي الأوامر من الولاة. وسوف يحتاج الأمير دائماً في الظروف الصعبة إلى رجال يمكنه الاعتماد عليهم. لأن هذا الأمير لا يمكن أن يعتمد على ما يقطعه الموجودون حوله من رعية في وقت الهدوء والأمن، فالرعايا في حاجة إلى الإمارة، وهم مستعدون للإعلان أن حياتهم فداء للأمير ، لأن الموت بعيد عنهم. ولكن في ساعة العسرة ، وحين تحتاج الدولة إلى المواطنين، لن يجد الأمير منهم في ذلك الوقت إلا القليل. وهي تجربة شديدة الخطر، ولا تمكن أن تحدث إلا مرة واحدة. وعلى ذلك فإن الأمير الحكيم يجب عليه أن يبحث عن وسائل تجعل رعاياه في حاجة مستمرة إلى حكومته، وحينئذ سيخلصون الولاء له دائماً.

* * * *



كيف يجب قياس قوة كافة الإمارات ؟

وهناك أمر آخر من الضروري أن نتناوله ، ونحن نبحث عن صفات الإمارات، وهذا الأمر هو: هل الأمير قادر على أن يحمي نفسه بمفرده عند الحاجة أم أنه في حاجة لحماية غيره دائماً. وأنا أعتبر أن الأمراء الذين يستطيعون حماية أنفسهم بمفردهم ، هم من يستطيع منهم أن يجند جيشاً كافياً بسبب وفرة المال والرجال، ولن يقهرهم أي مغير عليهم. أما الأمراء الذين هم في حاجة إلى أن يحميهم غيرهم، فلن يستطيعوا منازلة الأعداء في ميدان القتال، وهم يضطرون للانسحاب إلى داخل المدن للدفاع عنها. وقد ناقشت الحالة الأولى منذ وقت قصير. أما في الحالة الثانية فلا نجد شيئاً نقوله للأمير سوى أن نشجعه على أن يجمع المؤن ، ويحافظ عليها ، ويحسن استخدامها ، وأن يحاول تحصين مدينته ، ولا يشغل باله بما يحدث حولها في مدن أخرى أو قرى تابعة. وكلما تمكن من تحصين مدينته والإمساك بزمام الأمور فيها كلا تحسَّب له عدوه وحذر منه، لأن المقاتلين يخشون دائماً شن العمليات التي يعرفون مدى صعوبتها مقدماً، وليس من السهل أبداً أن نهاجم من تكون تحصيناته قوية لا سيما عندما يكون محبوباً من شعبه.

والمدن الألمانية تستمتع بكامل حريتـها وتحيـط بـها أراض وسـهول ريفيـة ضيقة. وهي تطيع أمراءها طاعة كاملة عندما يستطيع ذلك. والمدينـة الألمانيـة لا تخاف من أميرها ولا من نوابه، وتحصينها جيد جداً لدرجة أن من يرى هذا التحصين يتأكد له أنه ليس هناك أفضل مـن ذلـك. فحـول كـل مدينـة يوجـد خندق مائي وحصن ومدافع ضخمة، وكل مدينة ألمانية تحتفظ بطعـام وشـراب ووقود كاف للمدينة في مخازن عامة. إضافة إلى أن الألمان حتى يحـافظوا علـى معنويات الشعب ورضاه يوفرون له الوظائف بأساليب عديدة وخاصـة الوظـائف الحيوية للمدينة، ويمكن لأبناء الشعب التربح من تلك الوظائف لمدة عـام. كمـا أن التدريبات العسكرية مستمرة طوال العام، ولها شهرة واسعة، وهـي دائمـة الابتكار والتجديد فيما يخص الحفاظ على المدينة.

ومن هذا يتضح أن الأمير الذي يعيش في مدينة قويه ويحبه شعبه لا يمكن أن يُهاجم، ولو هوجم فإن من يهاجمـه سـيضطر إلى الانسـحاب، وهـو يجـر أذيال الخيبة والعار. ولأن عالمنا سريع التغـير، فإنـه مـن المسـتحيل علـى أي قائد أن يستمر في حصار مدينة ما لمدة عام، ومن يحتج علـيّ بـأن الشـعب لـن يصبر حين يرى العدو وهو يحيط بالدينة ويشعل النـار فيمـا حولهـا مـن أمـرك خاصة وأن طول الحصار، وتعرضه للمصالح الخاصـة للشـعب سينسـيه أمـيره. وأرد على ذلك بأن الأمير القوي الشجاع عادة ما يتغلب على هذه الصعاب مـرة بأن يملأ القلوب بالأمل، ومرة بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو ومرة ثالثة بأن يتأكد من قدرات أولئك الذين يظهرون جرأتهم الزائدة أمامه. إضافة إلى أن العدو عندما يأتي إلى مدينة بطبيعة الحال يشـعل النـيران فيمـا حولهـا بمجـرد

وصوله في وقت تكون النفوس فيها لا تـزال علـى حميتـها وتتطلـع للدفـاع عـن نفسها، أما عندما تفتر الحمية ، ويكون الدمار قد وقع فعـلاً. وابتلينـا بالشـرور التي ليس لها علاج، يصبح الجميع في ذلك الوقت أكثر استعداداً للاتحـاد مـع أميرهم الذي يصبح مديناً لهم بالمعروف فقد أحرقت ديارهم وخربـت أملاكـهم أثناء الدفاع عنه.

ومن طبيعة الإنسان أن يرتبط بمن يقدم له نعمـاً وينعـم بـها عليـه. وبنـاء على ذلك فإن الأمير الحكيم الذي ينظر إلى كافة الأمور بعين قادرة علـى حسـن التقدير لن يكون من الصعب عليه أن يرفع من روح مواطنيه عندما يبدأ الحصار وفي أثنائه لو كان يملك ما يكفي من مئونة وسلاح.

* * *



الإمارات الكنسية

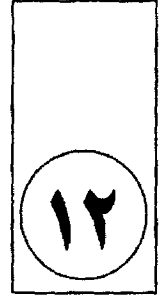
لم يبق أمامنا الآن سوى أن نتحدث عن الإمارات الكنسية ، حيث تقع غالب صعوباتها قبل الحصول عليها. حيث يتم الحصول عليها بالقدرات الخاصة أو بطريق الصدفة، لكن المحافظة عليها لا تحتاج لكلا الأمرين ، وذلك لأنها محكومة بعادات دينية قديمة. وهي عادات قوية وقادرة على أن تجعلها تحتفظ بأمرائها ماداموا قادرين على الحياة ومواصلة الحكم. وهو الصنف الوحيد من الأمراء الذين يحكمون ولاياتهم ولا يدافعون عنها، ولهم رعايا لا يهتمون بهم، وعلى الرغم من أنهم لا يدافعون عن ولاياتهم فإنهم لا يفقدونها، ولا يستاء منهم رعاياهم بالرغم من إهمالهم لهم. ولا يخطر في بالهم الانفصال عنها ولا يستطيعون ذلك. ولذلك فهي الإمارات الوحيدة الآمنة والسعيدة. ولكن لأنها محكومة بالقيم العالية التي لا يستطيع العقل البشري إدراكها، فإني سأمتنع عن الحديث عنها لأن الله هو من يحميها ويحافظ عليها، فمن الحماقة والوقاحة أن نتحدث عنها. وعلى أي حال قد يتساءل البعض عن كيفية تمكن الكنيسة من تحقيق هذه المكانة الزمنية القوية في حين أن كل من سبق الإسكندر السادس في إيطاليا مهما كان شأنه ـ وليس الأقوياء منهم فقط ـ وذلك سواء كان "بارون" أو من السادة والنبلاء، لم يقدروها حق قدرها، بينما يخشاها الآن ملك فرنسا الذي كانت الكنيسة قادرة على طرده من إيطاليا، كما كانت قادرة أيضاً على تحطيم قدرات البنادقة. ولذلك وعلى الرغم من أن هذا

أمر معروف إلا أنني لا أجد غضاضة في تأكيده مرة أخرى.

وقبل أن يأتي "تشارلز" ملك فرنسا إلى إيطاليا، كانت هذه الدولة تحت حكم البابا، والبنادقة وملك نابولي ودوق ميلان والفلورنسيين. وكان على الجميع أن يضع نصب عينيه أمرين مهمين ورئيسيين ، أولهما : أن لا يدخل إيطاليا أجنبي بقوة السلاح، والآخر هو ألا توسع حكومة من الحكومات الراهنة أملاكها. وكان الأمر يتطلب عناية خاصة بالبابا والبنادقة. حيث أن كبح جماح البنادقة يتطلب اتحاد جميع الباقين كما حدث عند الدفاع عن "فريرا". كما أن مواجهة البابا تطلبت الاستعانة بالبارونات الرومان وكانوا منقسمين إلى حزبين هما "الأورسيني والكولونا". وكانت هناك مشاحنات مستمرة بينهما وكانوا دائماً يحملون السلاح على مرأى من البابا، مما أضعف البابوية وجعلها غير ثابتة. وعلى الرغم من ظهور بابوات حازمين مثل "سكستس" من آن لآخر، إلا أنه لم يتمكن من التخلص من هذه المشكلات سواء بما لديه من قدرات ولا بحسن طالعه. وكان سبب ذلك حياتهم القصيرة حيث خلال عشر سنوات التي يحياها البابا في منصبه في المتوسط فإنه قد ينجح بصعوبة في إضعاف أحد الحزبين، وليكن الكولونا مثلاً، ثم يأتي بابا آخر معاد للأورسيني فيسمح ذلك للكولونا بالازدهار مرة أخرى ولا يستطيع البابا التغلب عليهم مرة أخرى.

وقد جعل ذلك من قوة البابا الزمانية أننا لم تحظ إلا بقليل من الاحترام في إيطاليا. ثم جاء الإسكندر السادس الذي جعلنا نشهد له ودون جميع سابقيه ، بأن البابا يمكنه أن يسود بالمال والقوة. وجعل الدوق "فالنتين" آلة في يده، كما احسن استغلال الغزو الفرنسي، وفعل كل ما سبق لي شرحه من أعمال الدوق،

وكان لكل ما فعله تأثير على إعلاء شأن الكنيسة رغم أن ذلك لم يكن مقصده بل كان يقصد إعلاء شأن الدوق، فورثت الكنيسة كل ما قام به بعد وفاة الدوق. ثم جاء البابا "يوليوس" حيث وجد الكنيسة قوية وتملك كل "رومانا" وقد تم القضاء على جميع بارونات الرومان، كما أن قوة الإسكندر كانت قد دمرت الأحزاب. كما أنه وجد البابا مفتوحاً لجمع الأموال بطرق لم تستخدم قبل الإسكندر. وهو لم يكتف باستخدام تلك الطرق فقط بل زاد عليها، وصمم على أن يكسب بولونيا ويقمع البنادقة ويطرد الفرنسيين خارج إيطاليا. وقد نجح في كل ما أراد، فاستحق الثناء الكبير وذلك لأنه فعل كل ما في وسعه للحفاظ على استمرار قوة الكنيسة وليس من أجل قوة أي شخص بصفة فردية. كما أنه أبقى أحزاب "الأورسيني والكولونا" في الحالة التي وجدهم عليها. وعلى الرغم أن هناك قادة من بينهم كان يمكنهم أن يحدثوا تغييرات إلا أن هناك شيئين قد حافظا على وضعهما الثابت وهما: الأول هو قوة الكنيسة التي أفزعتهم والثاني هو أنه لم يكن لهم كرادلة يخصونهم وهذا هو ما سبب الاضطرابات في صفوفهم. وهذه الأحزاب لا تهدأ أبداً إذا كانت لديها كرادلة، مما يثير الفتن داخل روما وخارجها، مما يدفع البارونات للدفاع عنهم. وهكذا تقوم الفتن والاضطرابات بين البارونات بسبب أطماع الأساقفة. ولذلك فقد أدرك قداسة البابا "ليو العاشر" ما للأسقفية من قوة كبيرة. ومن هنا طمح أن يصل بطيبته وفضائله التي لا تحصى إلى ما وصل إليه البابوات الآخرون من عظمة وجلال، ولكن بقوة السلاح.



حول الأنواع المختلفة للجندية وجنود المرتزقة

وبعد أن ناقشنا صفات الولايات بالقدر الكافي، كما تناولت عوامل نجاحها أو سقوطها. كما تناولت أيضاً الطرق التي حاول عن طريقها الكثيرون الحصول على مثل هذه الولايات. ولا يبقى أمامي الآن سوى أن أتحدث عن وسائل الهجوم والدفاع التي يمكن أن تستخدم في كل ولاية. وقد سبق لي أن أكدت على أهمية وجود الدعائم القوية التي تساند الأمير، وإلا كان القضاء عليه مؤكداً. وأهم دعائم كل الإمارات سواء كانت جديدة أم قديمة أم مختلطة هي وجود القوانين الجيدة والأسلحة الجيدة. ولا توجد قوانين جيدة دون وجود أسلحة جيدة، فحيثما توجد القوانين الجيدة توجد الأسلحة الجيدة أيضاً، ولذلك لن أناقش الآن القوانين، وسأستحدث فقط عن الأسلحة.

وأنا أرى أن الأسلحة التي يدافع بها أمير عن ممتلكاته إما أن تكون أسلحته الخاصة ، أو أسلحة لقوات مأجورة أو أسلحة حلفاء له أو مختلطة. وأسلحة المأجورين والحلفاء بلا فائدة وخطيرة، وكل من يقيم دولته على أسلحة قوات مأجورة لن يستطيع التأكد من قوة وثبات ولايته. لأنها قوات مفككة ولها مطامعها الخاصة، وغير منظمة ولا عهد لها، وهي تبدو قوية أمام الأصدقاء، لكنها جبانة عند مواجهة الأعداء، وهي لا تخشى الله ولا تصون عهدها مع الناس، وسقوطها مرهون بتأجيل العدوان عليها. وهم ينهبونك في

وقت السلم ، وينهبك العدو في وقت الحرب. وسبب ذلك أنهم لا يجدون دافعا يدفعهم للبقاء في الميدان سوى الأجور الزهيدة التي لا تجعلهم على استعداد للموت من أجلك. فهم مستعدون لأن يكونوا جنودك طالما أنك لن تقوم بحرب، ولكن عندما تبدأ الحرب، فإما أن يفروا أو أن يرحلوا معا. وأنا لست بحاجة لأن أبذل مجهوداً كي أثبت ذلك، فخراب إيطاليا لم يحدث إلا بسبب الاعتماد لسنوات عديدة على القوات المرتزقة. وإن كان بعضهم قد ساعد بعض الأمراء على بلوغ السلطة، وقد ظهروا شجعاناً وأقوياء حين كان التنافس بين بعضهم البعض ، إلا أنهم لم يكونوا كذلك حينما جاءهم الأجنبي، مما أتاح للملك "تشارلز" ملك فرنسا أن يستولي على إيطاليا بأقل جهد ممكن. إن من يعلل خراب إيطاليا بسبب الخطايا هو مُحِقّ، لكنها ليست خطايانا كما يقولون، وإنما هي خطايا الأمراء التي تحدثت عنها، فنالوا هم أيضاً العقاب.

وسأشرح بالتفصيل عيوب هذه القوات المسلحة المرتزقة، حيث إن الضباط المرتزقة إما أن يكونوا ذوي كفاءة أو غير أكفاء. فإذا كانوا أكفاء فإنه لا يمكن الاعتماد عليهم، لأنهم يثبتون لأنفسهم أنهم عظماء إما بابتزازك وأنت سيدهم أو بالضغط على غيرك لما هو في غير صالحك. أما إذا كان الضابط غير كفء فإنه يدمرك تماماً. وقد يرد على إنسان بقوله : إن ذلك ممكن حدوثه سواء كانت القوات من المرتزقة أو من غيرها. وأنا أرد عليه بقولي : إن القوات يستخدمها أمير أو حاكم الجمهورية. وعلى الأمير أن يتوجه بنفسه إلى موقع القائد، وعلى الجمهورية أن ترسل مواطنيها لهذا الغرض، فإذا اتضح عجز من أرسل فيجب على الجمهورية أن تغيره. أما إذا كان قديراً فإنها يجب أن تمنعه من تخطي الحدود المرسومة له بحكم القانون. وتشير التجارب إلى أن

الأمراء المسلحين والجمهوريات المسلحة هم فقط القادرون على تحقيق تقدم ملموس في حين لا تقدم القوات المرتزقة أي شيء سوى المضرة. كما أن الجمهورية المسلحة لا تخضع لحكم مواطن من أبنائها بسهولة كما يحدث في جمهورية مسلحة بقوات أجنبية.

وقد كانت "روما" و"إسبرطة" مسلحتين جيداً وأحراراً لقرون طويلة. كما كان السويسريون مسلحين جيداً ونعموا بالحرية التامة. ولدينا مثال من العصور القديمة للجنود المرتزقة وهم القرطاجنيون الذين بطش بهم جنودهم المأجورون بعد انتهاء أول حرب لهم مع الرومانيين، وذلك في حين أن القيادة كانت ما تزال لأبناء قرطاجنة. كما أن أهل طيبة قد "جعلوا فيليب" المقدوني قائداً لقواتهم بعد موت "أبامينوداس". وقد جردهم من حريتهم بعد أن تم له النصر وقد استأجر أهل ميلانو "فرانشسكو سفورتسا" لمحاربة البنادقة عندما مات الدوق فيليب. وعندما تغلب على البنادقة في معركة "كارافاجو" تحالف معهم ليقمع أهل ميلانو، وهم من كان يعمل في خدمتهم. وقد عمل أبوه في خدمة "جويفانا" ملكة نابولي، ثم تركها فجأة وهي بدون سلاح مما اضطرها لأن ترتمي في أحضان ملك "الأرجون" حتى لا تفقد مملكتها. وإذا كان البنادقة والفلورنسيين قد وسعوا مملكاتهم فيما مضى باستخدام القوات المرتزقة، ولم يحدث أن ولى القادة أنفسهم كأمراء بل استمروا في ولائهم ودفاعهم عن الأمراء، وأنا أرى أن الصدفة قد خدمت الفلورنسيين في تلك الحالة، حيث لم ينقلب عليهم القادة ذوو الكفاءة ، ولقي بعضهم الآخر معارضة، بينما وجهت مجموعة ثالثة مطامعها إلى وجهة أخرى. إن من لم يقم بالانقلاب هو السير "جون هوكوود"، ونحن لا نستطيع الحكم على ولائه مادام لم يحقق نصراً. والجميع

يعرف أنه لو حقق نصراً فربما وقعت "فلورنسا" تحت رحمته. كما أن "البراتشسكي" و"سفورتسا الأب" ضد بعضهم البعض على الدوام فكانوا عقبات دائمة أمام بعضهم البعض، فوجه "سفورتسا" أطماعه إلى لومبارديا، بينما توجه "براتشو" بأطماعه إلى الكنيسة ومملكة "نابولي".

ولنتناول ما حدث منذ فترة وجيزة حين نصب الفلورنسيون "باولو فيتللي" قائداً عليهم، وهو رجل حكيم جداً ارتفع إلى أعلى المراتب بعدما كان يشغل منصباً عادياً. ولا يمكن أن ننكر أنه لو تمكن من الاستيلاء على "بيزا" لوجب على "فلورنسا" أن تحافظ على صداقته وتهتم بذلك بشدة. وذلك لأنه لو حارب في صفوف أعدائهم، فلن يجدوا سبيلاً لمقاومته. ولو كانوا قد احتفظوا به لكان عليهم أن يطيعوه. أما بالنسبة "للبنادقة" فإذا تناولنا ما حققوه من تقدم، فسنجد أنهم قد نجحوا وحققوا مجداً طالما اعتمدوا على قواتهم الخاصة، كما أنهم حاربوا ببسالة وشجاعة بالاعتماد على أبناء الطبقة الأرستقراطية وأبناء العامة حتى بدءوا حروبهم البرية وتخلوا عن هذه الميزة واتبعوا العادات الإيطالية. وعند بدايتهم لتوسعهم البري لم يكن عليهم أن يخافوا من قوادهم، فرقعة الأرض ليست كبيرة وصيتهم لم يكن ذائعاً. ولكن –ومثلما حدث تحت قيادة "كارمينولا"– بعد أن اتسعت أملاكهم، وأدركوا خطأهم ، ورأوا فتور همته بعد أن هزم دوق ميلانو، رأوا ألا يقوموا بأي غزو جديد تحت إمرته فيما بعد. ولم تكن لديهم رغبة في طرده، ولا يستطيعون ذلك، خشية فقدان ما قد تمت السيطرة عليه، فاضطروا إلى إعدامه حتى تطوى صفحته. وعندئذ أصبح "بارتولوميو دابرجاموا وروبرت توداسان سفرينو والكونت دي بتليانو" وأمثالهم قادة لهم ، وكانوا يخشون أن يحققوا لهم الخسارة بدلاً من النصر، فخسروا في

يوم واحد ما كسبوه بصعوبة شديدة في ثمانية قرون. كل ذلك بسبب أننا نستطيع أن نحقق بعض التوافه باستخدام القوات المرتزقة لسنين عديدة، لكن ما تسببه من خسائر يأتي مفاجئاً وغريباً. ولما تكرر ذلك في إيطاليا التي تحكمت فيها القوات المرتزقة لسنين طويلة، فسوف أبحث عن صورة أدق وأكثر تفصيلاً تمكننا من تناولها ودراسة أصولها وتطورها.

ولابد أن نعرف أن إيطاليا كانت في تلك السنوات الأخيرة مقسمة إلى ولايات صغيرة، عندما بدأت الإمبراطورية في التفكك بسرعة، وأخذ البابا يتمتع بنفوذ أوسع فيما يتعلق بأمور الدنيا. وثارت المدن الرئيسية الثلاث على أمرائها المقربين من الإمبراطور. وشجعت الكنيسة هذا الأمر حتى تزيد من سلطانها الزمني. وفي مدن أخرى كثيرة أصبح واحداً من السكان أميراً. وهكذا سقط غالب إيطاليا تماماً في قبضة الكنيسة وبعض الجمهوريات القليلة. ولما كان القساوسة والمواطنون العاديون لا يستطيعون حمل السلاح، فإنهم قد أخذوا في استئجار جنود أجانب، وأول من استخدم هذا الأسلوب من الجندية هو "البرجيو دا كومو" من "رومانا"، حيث تربى كل من "براتشو" و"سوفورتسا" اللذين كانا أصحاب الكلمة الأولى في إيطاليا على أيدي المرتزقة. ثم تبعهم جميع قادة الجيوش في إيطاليا حتى اليوم، وكان من نجاحاتهم أن تغلب شارل على إيطاليا ثم افترسها لويس وطغي فيها "فرناندو" وبغى ، وأهانها السويسريون. وكان أسلوب هؤلاء المرتزقة هو أن يزعزعوا الثقة في المشاة، حيث كان من السهل على أفراد الشعب أن ينتموا للمشاة، وكان المرتزقة دائماً من الفرسان الذين لا وطن لهم ويعيشون على ما يكسبون، وكاد الأمر أن يقتصر تماماً على الفرسان، فقليل منهم كان يضفي الهيبة ويخلع على الجيش الشرف

والمهابة. وقد انحدرت الأمور إلى درجة أننا كنا نجد أن هناك ألفين فقط من المشاة في جيش تعداده عشرون ألف جندي. وقد أرسى المرتزقة كل القواعد والتقاليد التي تخلصهم من أي مشقة أو خوف وتقلل من المخاطر التي قد يتعرضون إليها حفاظاً على أرواحهم وأرواح جنودهم. من أمثلة ذلك أنهم كانوا يأسرون الأسرى دون أن يطلبوا عنهم فدية، ولا يهاجمون التحصينات العسكرية ليلاً، ولم يحفروا الخنادق حول معسكراتهم ولم يحاربوا في الشتاء ولم يضعوا المتاريس. لقد أجازت قوانينهم العسكرية لهم كل ذلك، وكان قانوناً مبتكراً يحاول أن يجنبهم المخاطر والمتاعب، فانحدروا بإيطاليا إلى غياهب العبودية ونزلوا بها إلى الحضيض.

* * *



حول القوات المعاونة والمختلطة والوطنية

عندما يطلب أحدهم من جاره أن يأتي للدفاع عنه بقواته، فهذه القوات تسمى قوات معاونة، وهي عديمة النفع مثل القوات المرتزقة، وقد حدث ذلك في العصر الحديث عندما لاحظ "جوليوس" إخفاق قواته المرتزقة في غزو "فيريرا"، فلجأ إلى استخدام القوات المعاونة واتفق مع "فرناندو" ملك أسبانيا على أن يساعده بقواته. وقد تكون هذه القوات جيدة في حد ذاتها، لكنها دائما مصدر خطر على من يستعيرها. لأنها إذا خسرت المعركة فإنك تكون قد هزمت أما إذا كسبتها فإنك ستبقى أسيراً لتلك القوات. وعلى الرغم من أن التاريخ القديم مليء بالكثير من هذه الأمثلة فإني لن أترك هذا المثال وهو مثال البابا "جوليوس الثاني" لأنه مثال حديث حي في الأذهان. وليس هناك سياسة خرقاء قليلة الحكمة مثل السياسة التي اتبعها. وذلك لأنه بسبب رغبته في السيطرة على "فريرا" قد وضع نفسه بالكامل تحت سيطرة الأجنبي ولكن لحسن الحظ ظهرت قوة ثالثة ساعدت على منعه من جني الثمار المرة لسياسته الفاسدة. وذلك لأنه عندما هزمت قواته المعاونة في "رافينا". نهض السويسريون وردوا المنتصر، وذلك دون أي توقع منه أو من الآخرين، ونجا بذلك من أن يقع في أسر عدوه الذي هرب بالفعل، ولا في أسر قواته المعاونة لأنها هزمت على يد قوات جهة ثالثة. كما أن الفلورنسيين الذين كانوا بلا

سلاح بالمرة قد استأجروا عشرة آلاف جندي فرنسي للهجوم على "بيزا"، وهذا يعتبر مخاطرة كبرى لم يمروا بها من قبل خلال سنوات كفاحهم. وحشد إمبراطور القسطنطينية عشرة آلاف تركي في اليونان لمواجهة جيرانه، لكنهم لم يرحلوا بعد الحرب، وكانت هذه هي بداية لمرحلة استعباد لليونانيين من جانب من جاءوا لمناصرتهم.

إذن على من لا يريد أن ينتصر أن يعتمد على هذه القوات المعاونة التي تزيد خطورتها قليلاً على خطورة القوات المرتزقة، فبوجودهم سيكون الخراب شاملاً، وذلك لأنهم متحدون دائماً، وولاؤهم للآخرين وليس لك. بينما تحتاج القوات المرتزقة إلى وقت وفرصة مناسبة حتى تتمكن من الإضرار بك، وذلك لأنها لا تشكل تكوينا واحدا ولأنها تستلم رواتبها منك ومرتبطة بك. وعلى ذلك فإذا جعلت طرفا ثالثا هو القائد فإنه لن يستطيع بسرعة أن يتمكن من الحصول على المكانة التي تؤهله لأن يضر مصالحك. وخلاصة القول هو: أن قصارى الخطر المتمثل في القوات المرتزقة يكمن في جبنها وتخاذلها عن القتال، لكن القوات المعاونة خطورتها تنبع من شجاعتها.

والأمير المحنك إذن يتجنب دائماً هذين النوعين من القوات وله مصادره الخاصة للقوات، وهو يفضل الهزيمة على يد قواته الخاصة عن النصر على يد قوات الآخرين، فهو لا يعتقد أن هذا الذي تحققه القوات الأجنبية سيكون نصراً حقيقياً. وأن لا أتردد في أن أذكر مثال قيصر "بورجيا" وأعماله. فهذا الدوق دخل إلى "رومانا" بقوات معاونة وقاد قوات تتكون بالكامل من جنود فرنسيين تمكن بهم من السيطرة على "أيمول" وفورلي، ولكنه لم يأمن جانبها فلجأ إلى القوات المرتزقة لتجنب المزيد من الخطر، فاستأجر "الأورسيني

والفيتلي"، ثم اكتشف بعد ذلك عدم قدرته على الثقة فيهما بعد أن جربهما. وتأكد من أنهما غير مخلصين وخطيرين، فبطش بهما واعتمد على جنوده فقط مما زاد من شعبيته زيادة مستمرة ، ولم يصل إلى مثل هذه الشعبية الكبيرة التي وصل إليها إلا عندما لاحظ الجميع أنه الآمر الوحيد لقواته.

ولا أريد أن أترك الأمثلة الحديثة من تاريخ إيطاليا، وأريد الآن أن أتحدث عن "هيرو" سيراكوزا وقد سبق لي ذكره. هذا الرجل وبمجرد أن جعله السيراكوزيين على رأس الجيش -كما سبق أن قلت- لاحظ عدم فائدة الجيش المنظم على طريقة قواتنا الإيطالية المأجورة، ولما رأى أن الخلاص منهم أو الاحتفاظ بهم أمر غير مأمون، فقد قطع أوصال هذا الجيش وقسمه إلى أجزاء صغيرة. واعتمد منذ ذلك الوقت على خاصة وليس على قوات الآخرين. كما أنني سأستشهد أيضاً بقصة رمزية من العهد القديم ، وهي توضح هذه النقطة بدقة. فعندما عرض داود نفسه على "شاؤول" لكي يذهب وينازل "جوليات" بطل فلسطين. فسلحه "شاؤول" بسلاحه الشخصي كي يشجعه على القتال. لكن داود بعد أن جرب السلاح بنفسه رفضه قائلاً : إنه يستطيع استخدامه بطريقة جيدة، ولذلك فقد فضل أن يواجه عدوه بمقلاعه وخنجره . وباختصار فإن استخدام أسلحة الآخرين غير مجد أيضاً وقد تعوقك ، أو تشل حركتك أو تشكل عبئاً عليك. إن الملك "تشارلز" السابع أبوالملك لويس السادس قد اعتقد أن حسن الطالع والشجاعة كانا السبب في تحرير فرنسا من الإنجليز، وقد لاحظ ضرورة التسلح باستخدام قواته الخاصة وأسس نظاماً في مملكته يعتمد على رجال يحملون السلاح وعلى كتائب المشاة. وفيما بعد ألغى أبنه الملك لويس كتائب المشاة واستأجر جنوداً سويسريين، وكان هذا هو الخطأ الذي

تبعته أخطاء أخرى أدت إلى تعرضه للخطر كما هو واضح الآن. وذلك لأنه باعتماده على السويسريين ومنحهم هذه السمعة أحبطت فرنسا معنويات كل قواتها الخاصة، فقد تم إلغاء المشاة واضطر الباقي من القوات إلى العمل مع الأجانب لكسب تعاونهم. ثم تعودوا على الحرب مع القوات السويسرية، وظنوا أنهم لا يمكنهم النصر بدونهم. وأصبح الفرنسيون في وضع لا يمكنهم من القضاء على السويسريين، ولا يمكنهم من مواجهة الآخرين دون الاعتماد عليهم. وبذلك أصبحت القوات الفرنسية من النوع المختلط، جزء منها من المرتزقة، وجزء من القوات الوطنية. وإذا ما تناولناها بصفة عامة فإننا سنجدها أفضل كثيراً من المكونة بالكامل من المرتزقة أو من القوات المعاونة لكنها بالطبع أقل من القوات الوطنية.

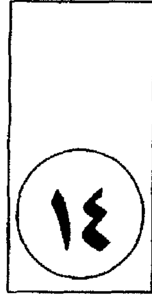
ولعل هذا المثال كافٍ في حد ذاته، لأن فرنسا كانت ستظل منيعة لو حاولت الإبقاء على نظام "تشارلز" العسكري أو تطويره. لكن الرجال الذين يفتقدون الحكمة عندما يبدءون أمراً جديداً يجنون ثماره الطيبة لا ينتبهون إلى السم الموجود بداخله، وذلك يشابه ما أشرت إليه سابقاً.

ولذا فالأمير الذي يخفق في أن يلاحظ مشكلات إمارته في مهدها لا يمكن وصفه إلا بأنه غير حكيم، فالحكمة توهب للقليلين فقط. وإذا ما نظرنا إلى أسباب الانهيار الأول للإمبراطورية الرومانية فسنجد أنه كان بسبب استئجار قوات مرتزقة من "الغوت"، لأنه منذ ذلك والوقت بدأت القوات الرومانية في الضعف. وسقطت عن الإمبراطورية جميع مزاياها وذهبت إلى "الغوت".

ولذلك فإني أنهي حديثي بالتأكيد على أنه لا سلامة لأمير يحتمي بقوات مسلحة غير قواته الوطنية. فبدون قواته المسلحة الوطنية يتوقف مصيره على

حسن الطالع فقط، وسيظل بلا وسيلة يملك بها الدفاع عن نفسه حين تضطرب الأحوال. لقد قال الحكماء : "لا يوجد ما يزعزع عند البشر أكثر من ولايات تدعمها الشهرة ولا تدعمها قواتها الوطنية." وقوات الأمير الوطنية تتكون إما من الرعايا أو من المواطنين، أو من أتباعه هو، وأي قوات أخرى غير هؤلاء هي إما أجير مرتزق أو من القوات المعاونة. ومن السهل أن نعرف كيفية إدارة القائد للجيوش الوطنية لو أننا درسنا طرق الأمراء الأربعة الذين ذكرتهم، وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي نظم بها فيليب -أبو الإسكندر الأكبر- وكثير من الحكام والجمهوريات قواتهم. وبعد هذه الأمثلة لا توجد حاجة لتناول الموضوع بالتفصيل.

* * * *



واجبات الأمير فيما يتعلق بالقوات المسلحة

ينبغي للأمير ألا تكون له غاية أو فكرة سوى الحرب ، ونظامها وطرق تنظيمها ، وألا يتخذ لدراسته موضوعا آخر سواها. فهذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يتولى القيادة. فهو فن له من المزايا ما يكفي للمحافظة على هؤلاء الذين ولدوا أمراء والإبقاء عليهم في مناصبهم. كما أنه يساعد الرجال العاديين على بلوغ مرتبة الإمارة. ومن ناحية أخرى يمكننا أن نرى أن الأمراء يفقدون ولاياتهم عندما يفكرون في مظاهر الترف أكثر من تفكيرهم في الأسلحة. والسبب الأول لضياع الولايات هو إهمال هذا الفن. فهي تكتسب عن طريق إجادة هذا الفن.

وقد توصل "فرانسشكو سفورتسا" بحسن تسلحه إلى أن أصبح دوق ميلانو، وقد كان فيما قبل فرداً عادياً. وقد انحدر أبناؤه إلى أن أصبحوا أشخاصاً عاديين بعد أن كانوا أمراء ، وذلك لابتعادهم عن متاعب الحروب ومشقتها. وذلك لأن من بين عيوب عدم التسلح الجيد هو أن الفرد يصبح بلا قيمة ، وهذا أمر لابد على الأمير أن يتجنبه. وهذا ما سنشرحه فيما بعد. فشتان ما بين رجل مسلح ورجل أعزل، ومهما كان الأمر فلن نرى رجلاً مسلحاً يطيع رجلاً اعزل ، وهو بكامل إرادته، ولن نر أعزل سالماً بين أتباعه المسلحين. فمن المستحيل أن يعمل الاثنان معاً في سلام، لأن أحدهما محتقر والآخر كثير الشك.

ولهذا فمن المستحل أن يحترم الجنود أميرهم الذي يجهل الشئون الحربيــة، أو أن يكونوا محل ثقته، فضلاً عن المشكلات الأخرى التي ذكرتها قبل قليل.

ولذلك لابد للأمير ألا ينســى التدريـب العسـكري، فـهو يتـدرب في وقـت السلم أكثر مما يفعل في وقت الحرب، وهذا ممكـن تطبيقـه بطريقتـين إحداهمـا عملية والأخرى نظرية. ومن الناحيــة العمليـة، يجـب عليـه بجـانب تنظيمـه لقواته وتدريبه لهم أن يشغل نفسه بالصيد باسـتمرار، فـهذا أمـر يعـوّد جسـده على المشقة والتعب، كما أنه يجعله يدرس طبيعة البلاد في نفس الوقت، فـهذه منحدرات الجبال وهنا تنفرج الوديان، وهنـاك مواقـع السـيول، ويفـهم طبيعـة المستنقعات والأنهار، وعليه أن يلم بجميع هذه الأمور إلماماً تامـاً. ولهـذا العلـم فوائد من ناحيتين. أولها أن الإنسان يعرف عن بلاده كل شيء مما يتيح له أن يدافع عنها بصورة أفضل، كما أن معرفته لطبيعة إقليم بلاده توصله إلى طبيعـة أقاليم أخرى. والأمير الذي لا يملك هذه الصفات يفتقد أول ضروريـات القـائد. فهذه المعارف تعلمه كيف يلقى عدوه، وكيف يقيم المعسكرات ؟ وأين يقيمـها ؟ وكيف يضع الخطط للمعارك ؟ وكيف يحاصر المدن ويظفر بها ؟

ومن بين الصفـات الحميـدة الـتي وصـف بـها الكُتّـاب "فيلوبومـين" أمـير "الآخيليين" من بين أمراء آخرين، هي أن قالوا عنه : إنه لم يكـن يفكـر وقـت السلام سوى في الشئون العسكرية. وكثيراً ما كـان يقـف بـين أصحابـه خـارج المدينة ويسألهم: إذا كان العدو فوق هذا التل، ووجدنا أنفسنا هنا مع قواتنـا، فأي منا ذو وضع مميز؟ وكيف يمكننـا الاقـتراب مـن العـدو مـع الحفـاظ علـى نظامنا؟ وإذا أردنا الانسحاب .. ماذا يجب أن نفعـل ؟ وإذا انسـحب العـدو فكيف يمكننا أن نتبعه ؟ ثم كان يحدثهم أثناء السير عن كل الاحتمالات التي

يمكن أن تحدث للجيش وكان يستمع لآرائهم ويعطيهم رأيه ويؤكده بالبراهين. لذلك فهو لم يتعرض لأي حادث لم يكن يتوقعه أثناء قيادته للجيوش وذلك بفضل هذه المناقشات الدائمة.

أما فيما يخص تدريب العقل فإن على الأمير أن يقرأ تاريخه ، ويدرس أعمال عظام الرجال، ليرى كيف كانوا يتصرفون في الحروب ، ويدرس أسباب انتصاراتهم ومسببات هزائمهم، حتى يستطيع أن يسير على درب المظفرين ويتحاشى أن يلقى هزيمة تماثل هزائم المقهورين منهم. وقبل كل شئ يجب عليه أن يسير على درب عظماء الماضي، الذين كانوا يتخذون هم بدورهم من العظماء الذين سبقوهم قدوة لهم. فيقال إن الإسكندر الأكبر قد قلد أعمال "أخيلس" واقتدى "اسكيبيو" بكورش. كما أن كل من يقرأ حياة "كورش" التي سجلها "اكسينوفون" سيتضح له كيف أن "سكيبيو" قد اقتدى "بكورش" في حياته وقلده بشدة، فتحلى بصفاته من طهر ورقة وعظيم صفات ، وكرم.

وعلى الأمير الحكيم أن ينهج هذا النهج ولا يخلد في زمن السلم إلى الكسب أبداً. وأن يصر على الاستفادة من هذه الطريقة بمهارة قدر الإمكان. حتى أنه يستطيع أن يكون مستعداً لضربات القدر حين تتغير الأحوال ، وأن تكون له السيادة وقت الشدائد.

* * * *



ما يلام عليه الرجال - وبخاصة الأمراء - أو يمدحون لأجله

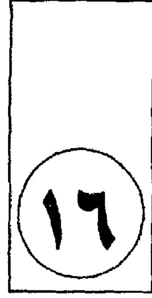
ولم يبق الآن سوى أن ننظر فيما يخص طريقة الأمير في اختيار رعاياه وأصحابه. وأنا أعلم أن هناك الكثير ممن سبقوني للكتابة في هذا الموضوع وأخشى أن يعتبر ما أكتبه نوعا من الغرور حين يختلف عما كتبه الآخرون. لكني لا أود إلا الوصول إلى الحقيقة وليس تخيلها وأن الأصح هو أن تكتب ما يفيد الآخرين وليس ما نتخيله. فقد تخيل الكثيرون جمهوريات لم ترها عين إنسان أو تخطر على ذهن آخرين غيرهم ، وليس لها وجود في الحياة التي نحياها. وشتان بين حياتنا كما نحياها ، وبين ما ينبغي أن تكون. ولا يجب علينا أن نترك ما نقوم به من أفعال في سبيل تحقق ما ينبغي تحقيقه على أتم وجه فهذا سعي للفناء وليس للبقاء في أفضل حال. فمن يريد الخير لن ينعم أبداً إذا كان حوله الكثير من الأشرار. لذلك يجب على الأمير الذي يريد الحفاظ على نفسه أولاً ، أن يعرف كيف يكون خيراً وليس شِريراً ومتى يستخدم هذه الصفة ؟ ومتى لا يستخدمها حسب الضرورة ؟ .

لهذا فإنني حين أتخلى عن الحديث في الأمور التي تخص الأمير من ناحية الخيال فقط. وأتكلم عن الأمور الواقعية. فكل الناس يذكرون لأعمالهم المجيدة ، وخاصة الأمراء حيث إنهم أعلى منزلة من غيرهم. وهناك خصال معينة تجلب عليهم اللوم ، وأخرى تُكسبهم المديح والثناء. فالناس يعتبرون

هذا سخياً وذاك مقتراً، وهذا معطاء يعطي بسخاء ، وذلك جشع. هذا قاس ، . وذاك عطوف. هذا لا يصون وعوده وهذا جدير بالثقة، هذا جبان رعديد ، وذاك مقدام وعنيف، هذا رقيق وذاك متغطرس، هذا فاسق ، وذاك عفيف. هذا صريح وذاك ماكر، هذا صعب المراس وذلك سهل الانقياد. هذا جاد جداً في كل أموره ، وذاك ساخر، وهذا متدين ، والآخر غير ملتزم بأمور دينه. وغيرها من أمثلة. ومن الواضح أن كل أمير يتصف بكل الصفات الخيرة السابقة سينال ثناء كبيراً من الناس. ولكن، لما كان من غير الممكن أن يحوز كل هذه الصفات، وذلك لأن صفات البشر لا تسمح بذلك كان من الضروري بالنسبة له أن يكون ذا حكمة كافية ، تمكنه من تحاشي أي فضيحة بسبب رذيلة من هذه الرذائل ، والتي قد تفقده الولاية ويقي نفسه من شرور الصفات الأخرى.

وإذا لم يستطع ذلك فعليه أن يهمل تماماً هذه الرذائل ، ويحترس جداً فقط من تلك التي قد تسبب هلاكه. ويجب عليه ألا يعبأ بفضح تلك الرذائل التي يصعب بدونها المحافظة على الولاية. وذلك لأننا إذا نظرنا للأمور نظرة صحيحة لوجدنا أن بعض ما يبدو فضائل قد يهلكنا لو طبقناه، والبعض الآخر الذي يبدو من الرذائل قد يسبب سلامة الإنسان وسعادته.

* * * *



حول السخاء والشح

والآن إذا تناولنا أولى هاتين الصفتين فإني أقول: من الأفضل للأمير أن يكون كريماً سخياً إلا أن السخاء بمعناه عند العامة قد يؤذي صاحبه. وذلك لأنه إذا استخدم الكرم بالطريقة الصحيحة وبمعناه الحقيقي، فلن يعلم أحد عنه أي شئ، وبالتالي يوصم صاحبه بالرذيلة المضادة وهي الشح والتقتير. لكن على من يريد أن يشتهر بالسخاء بين الناس ألا يتخلى عن كل المظاهر الفخمة ، لأن سخاء الأمير إذا وصل إلى هذا الحد سيستهلك جميع موارده، فيضطر إلى فرض الضرائب الباهظة على شعبه وجباية الأموال في سبيل المحافظة على هذه الشهرة. وهذا يبدأ الكراهية له في صدور رعاياه، فهو قليل الاحترام حين يصبح فقيراً، كما أنه سيكون قد أضر الكثيرين بسخائه الذي لن يستفيد منه سوى القلة. ويؤثر فيه أول اضطراب بسيط ، ويحيط به الخطر عند حدوث الشدائد بسرعة، فإذا ما أدرك الأمير ذلك ، وأراد أن يغير من طبعه ، فإنه يتهم بالشح والتقتير.

لذلك يجب على الأمير الذي لا يستطيع ممارسة عادة السخاء بطريقة تضره ألا يخشى أن يوصم بالتقتير، لأنه سيعتبر سخياً مع مرور الزمن، حين يعرف أن اقتصاده جعل الدخل كافياً للدفاع عن النفس ضد من يريد أن يشن عليه حرباً. كما يمكنه القيام بالكثير من الأعمال العظيمة دون أن يثقل كاهل

شعبه ، فيصبح سخياً في نظر من لم يحصل منــهم مـالاً، وعددهـم لا يحصـى، وهو مقتر بالنسبة لمن لم يعطهم، وهـم قليلـون. ونحـن لم نـر في أيامنـا أعمـالا عظيمة إلا لمن كانوا في عداد المقترين، وقضي على جميع من عداهـم. إن البابـا جوليوس الثاني كان في حاجة لهذه السمعة حتى يتمكن من شن الحرب. كمـا أن ملك فرنسا الحالي قد استطاع شن عدة حروب كثـيرة دون فـرض أي ضريبـة استثنائية على شعبه، وذلك لأن ما وفره في فترة طويلـة زاد عمـا أنفقـه عليـها. ولو عرف عن ملك أسبانيا الحالي أنــه كريـم لمـا تمكـن مـن أن يقـوم بكـل هـذه الأعمال الكثيرة ويوفق فيها.

ولكل هذه الأسباب لابد للأمير ألا يعبا إذا ما وصف بـالبخل، إذا أراد ألا يفقد رعيته، وأن يكون قادراً على حماية نفسه، وألا يصبح حقيراً وفقـيراً، وألا يضطر إلى أن يصبح جشعاً. إن الشح رذيلة تمكنــه مـن الحكـم. فـإذا قيـل إن القيصر قد بلـغ الإمبراطوريـة بالسـخاء، وصعـد كثـيرون غـيره إلى أعلـى منزلـة بالسخاء أو باشتهارهم به، فإني أرد على ذلك قـائلاً إنـك إمـا أن تكـون أمـيراً حديث العهد ، أو في طريقك لأن تكون أميراً. ففـي الحالـة الأولى يكـون الكـرم مضراً، أما في الحالة الثانية فيجب عليك دائمـاً أن تكـون مـن شـديدي الكـرم. لقد كان القيصر من هؤلاء الذين يريدون أن يصبحوا أسياد روما. لكنه لـو بقـي على قيد الحياة ولم يغير من طريقة إنفاقه بعـد أن بلـغ مـراده، فربمـا تـهدمت الإمبراطورية وسقطت. وقد يقال : إن كثيرا من الأمراء الذين حققـوا فتوحـات عظيمة بجيوشهم، كانوا يوصفون أيضاً بشدة السخاء، فإني أرد قائلاً إن الأمـير قد ينفق من أمواله الخاصة ومن ثروات الآخرين وأموال الرعـية. ففـي الحالـة الأولى وهـي إنفاقـه مـن أموالـه الخاصـة لابـد أن يعـرف عـنه الاقــــتصاد في

الإنفاق، وفيما عدا ذلك يجب أن يهتم بان يكون سخياً، وهو أمر ضروري لأمير يسير بجيوشه ، ويعيش على سلب الملكيات ، والغنائم ، والفدية ، فهو ينفق من ثروة غيره. كما أن جنوده لن يساندوه دون أن يكون سخياً جداً معهم. ومن الممكن لك أن تكون سخياً جداً بما لا تملك أو لا يملكه رعاياك، وذلك كما فعل كورش والاسكندر. فالإنفاق من ثروات الآخرين لن يحط من سمعتك. بل إنه سيعلي من قدرك، ولن يؤذيك سوى الإنفاق مما تملك فقط. ولا توجد صفة تحطم نفسها بنفسها مثل صفة الكرم، لأنه كلما زاد كرم المرء فإنه يفقد القدرة على المزيد منه، فيتحول إلى إما فقير حقير ، أو جشع مكروه حتى يتحاشى الفقر. واهم ما يجب أن يتحاشاه الأمير من هذه الأمور هو أن يصبح فقيراً أو مكروهاً، والسخاء هو ما يقود إلى إحدى هاتين الصفتين. ولهذا فمن الأفضل أن يشتهر الأمير بالحرص الذي يجلب له اللعنة وليس الكراهية، وألا يضطر إلى أن يكون جشعاً، لأن ذلك يجلب له العار والكراهية معاً.

* * * *



حول الشدة واللين هل من الأفضل أن نكون محبوباً، أم مهاباً ؟

وعندما أريد أن أتحدث عن الشدة واللين أقول إنه على الأمير أن يسعى لأن يوصف بالرحمة وليس الشدة، وأن يحرص على عدم إساءة استخدام الرحمة بأي حال من الأحوال. كان قيصر "بورجيا" يوصف بالشدة، وشدته هي سبب جلب النظام إلى "رومانا" وتوحيدها، واستتباب الأمن فيها، وضمان ولائها وإذا نظرنا لهذه المسألة نظرة صحيحة ، فإننا نرى أن القيصر كان في الحقيقية أكثر رحمة من الشعب "الفلورنسي" الذي سمح بتدمير "بستويا" تجنباً لأن يوصف بالشدة. لذا يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يوصف بالشدة مادامت هذه الشدة من أجل الحفاظ على مواطنيه وولائهم له، وذلك لأنه حين يكون شديداً مع عدد قليل جداً من الناس، وهو بذلك أفضل من الأمراء الذين يفرطون في اللين مما يسبب وقوع الاضطرابات. وتسيل الدماء ويحدث النهب والسلب. وهذه أمور تضر الكثيرين بصفة عامة، لكن تنفيذ حكم الإعدام في عدد قليل من الناس لن يؤذي أحدا غيرهم. والأمير حديث العهد بالإمارة فقط هو من في حاجة شديدة دون بقية الأمراء للاشتهار بالشدة ، لأن الولايات الجديدة تعاني دائماً من الأخطار. يقول "فيرجيل" على لسان ديدو:

حالة بلادي وشئوني مستعصية

دولة في المهد وعرش متزعزع الأركان
هذه الظروف قاسية
تمنعني من نشر قواتي في كل اتجاه
لأحمي أملاكي بقوة وأحرس شواطئي عن كثب

ومع ذلك يجب على الأمير أن يحذر في كل ما يحمله من معتقدات وكل ما يقوم به من أعمال، وألا يظهر بمظهر الجبان الرعديد، وأن يتقدم إلى الأمام بحكمة ولين وألا تجعله الثقة الزائدة يهمل الحذر، وألا تجعله الريبة الزائدة غير محتمل.

ومن هنا تبزغ مشكلة المفاضلة بين وجوب أن يكون الأمير محبوباً أكثر منه مهاباً أم مهاباً أكثر منه محبوباً. والجواب هو أنه ينبغي على الإنسان أن يكون محبوباً ومهاباً في نفس الوقت. ولما كان من الصعوبة الحفاظ على الصفتين معاً، فإن المهابة في هذه الحالة أفضل بكثير إذا كنا لا نستطيع إيجاد الصفتين معا. لأنه من الممكن أن نقول عن عامة البشر إنهم ينكرون المعروف، ويحبون المراوغة في الحديث ومراءوين، حريصون على تجنب الخطر، راغبون في الكسب، هم أعوانك طالما استفادوا منك، وهم يفدونك بالدم وما يملكون وبحياتهم وولدهم، حين لا يكون هناك داع لذلك، ولكن حين تقترب الأخطار ينقلبون عليك، إن الأمير الذي يعتمد على وعود رعاياه يهلك إلا إذا تهيأ بالمعدات الكافية، وذلك لأن الصداقة التي يمكن شراءها غير مأمونة، ولن تعمل لصالحك عند الضرورة. إن البشر يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم في إيذاء من يهابون. وذلك لأن الحب مرتبط بسلسلة من الارتباطات

التي تتفكك عندما تؤدي غرضها (وذلك بسبب أنانية النـاس). لكـن استخدام المهابة والخوف من العقاب طريقة صحيحة لا تفشل أبداً.

ما زلت أقول : إنه على الأمير أن يجعل نفسه مهاباً بطريقة تجعله إن لم يحصل على الحب، فإنه يتجنب الكراهية علـى أي حـال. وذلـك لأن المهابـة وعدم وجود الكراهية من الممكن أن يجتمعا معا. ويستطيع تحقيق ذلك كل مـن يمتنع عن التدخل في أمور أملاك رعاياه ونسائهم. وعليـه ألا يـأمر بـإعدام أي شخص إلا بعد التأكد من المبررات الكافية لذلك ويوضح أسـبابه. لكنـه يجـب عليه ـ قبل كل شيء ـ الامتناع عن الاستيلاء على أملاك غيره، لأن الإنسان قد ينسى موت أبيه بسهولة عن نسيانه لضياع ميراثه. كما أنـه لا حاجـة للأمير أن يوجد الذرائع لاغتصاب ملكيات الغـير. فمـن يعيـش علـى النـهب سيجد دائماً سبباً يغتصب به متاع الآخرين بينما مسببات الإعـدام أقـل بكثـير وتـزول سريعاً.

لكن عندما يكون الأمير بين أفراد جيشه ومعه عدد كبير من الجنـود فإنـه يتحتم عليه أن يُعرف بالشدة، لأنه بدون هذه السـمعة لـن يحـافظ علـى وحـدة الجيش أو يؤدي أي مهمة. إن من بين منجزات "هانيبال" الجديرة بالذكر أنه على الرغم من وجود جيشه العرمرم ووجود الجنود فيه من دول كثيرة ومحاربته في دول أجنبية، إلا أنه لم يقع بينهم أي مشكلات أو يثوروا ضـد الأمـير سـواء كان ذلـك في السـراء أم في الضـراء. وهـذا لا يرجـع إلى أي سـبب سـوى شـدة "هانيبال" التي جعلته (بالإضافة إلى فضائله الأخـرى الـتي لا تحصـى) عظيمـاً بين جنوده ومهاباً باستمرار. وما كانت قدراته كافية لتحقيق هـذا الأثـر لـو لم

يكن شديداً. والكُتاب الذين لا يفكرون جيداً يعجبون بأعماله جهة، ومن جهة أخرى يلومونه على شدته وهي السبب الرئيس لإنجاز هذه الأعمال.

ومن الممكن أن نلاحظ أن بقية خصاله لم تكن كافية وحدها في حالة "سكيبو" (وهو مشهور ليس فقط في عصره، لكن ذكراه باقية في كل العصور) فقد ثارت عليه قواته في أسبانيا، ولم يكن لذلك سبب آخر سوى شفقته المفرطة، مما أتاح لجنوده قدراً من الفوضى ، لا يتفق مع الحياة العسكرية. وقد لامه "فابيوس ماكسيموس" على ذلك ، وأطلق عليه لقب "مفسد الجندية الرومانية". فقد دمر أحد ضباط "سكيبو" "لوكرا" فلم يقتص منه لذلك، ولم يعاقبه، والسبب ببساطة هو طبيعته المتساهلة. لدرجة أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ أراد أن يلتمس له العذر فقال إن هناك أناسا كثيرين يعرفون كيف يتجنبون الأخطاء ، أكثر من معرفتهم بكيفية تصحيح أخطاء الآخرين. وكان من الممكن لهذا الاستعداد أن يقلل من شهرة "سكيبو" لو استمر على ذلك في عصر الإمبراطورية، لكن في ظل مجلس النواب لم تختف هذه الصفة فقط ولكنها كانت سبباً لشهرته في نفس الوقت.

ولذلك فإني أختم حديثي عن مهابة الأمير ، وحب الناس له فأقول إن الناس يحبون بمحض إرادتهم الحرة، لكنهم يخافون حسب رغبة الأمير، وعلى الأمير العاقل أن يعتمد على ما له من سلطان ، وأن يسعى لتجنب ما يسبب له الكراهية المدمرة، كما سبق أن أوضحت.



كيف يصون الأمراء عهودهم ؟

كلنا نعرف مدى الثناء الذي يناله الأمير الذي يحفظ عهده ويحيا حياة مستقيمة، دون مكر. لكن تجارب عصرنا هذا تدل على أن أولئك الأمراء الذين حققوا أعمالاً عظيمة هم من لم يصن العهد إلا قليلا. وهم من استطاع أن يؤثر على العقل بما له من مكر. كما استطاعوا التغلب على من جعلوا الأمانة هادياً لهم.

ويجب أن تعلم أن هناك طريقتين للقتال، واحدة لها قواعد وقوانين والأخرى تعتمد على القوة فقط. الطريقة الأولى للبشر، أما الثانية فللحيوانات المفترسة، ولما كانت الأولى غير كافية في أغلب الأحوال، فأن المرء كان يلجأ غالباً للطريقة الثانية. ولهذا فمن الضروري للأمير أن يعرف حق المعرفة كيف يستخدم كلتا الطريقتين. وقد علم الكُتاب القدامى أمراءهم ذلك وأوحوا لهم به. فهم يرون أن "أخيليس" وغيره الكثير من الأمراء القدامى قد أرسلوا إلى "كيرون" ليربيهم ويعلمهم بطريقته. وهم يقصدون من صورة هذا المعلم ذى النصف البشري ، والنصف الحيواني أن يوضحوا أنه على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطريقتين معاً، فواحدة منهما لن تدوم بدون الأخرى.

ولهذا السبب كان الأمير مضطراً إلى أن يعلم جيداً كيف يتصرف كالحيوان، فهو يقلد الثعلب والأسد، لكن الأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ والثعلب غير قادر على مواجهة الذئاب. على المرء إذن أن يكون ثعلباً

ليواجه الفخاخ ويكون أيضاً أسداً ليخيف الذئاب. ومن يريد أن يكون أسداً فقط لا يفهم الأمور جيداً. فعلى الأمير إذن ألا يحفظ عهداً يكون الوفاء به ضد مصلحته، وألا يستمر في الوفاء بوعد انتهت أسباب الارتباط به. وقد يكون هذا المبدأ مبدأ شريرا لكن هذا يصدق فقط في حالة ما إذا كان جميع البشر من الأخيار. لكن إذا كانوا جميعاً من الأشرار ولن يرعوا عهودهم معك، فهذا يسمح لك أن تكون في حل من عهودهم. فلم يفشل أي حاكم في اختلاق الأعذار المقبولة التي يبرر بها عدم الوفاء بالعهد. وهناك عدد لا حصر له من الأمثلة في العصر الحديث تؤكد ذلك، وتوضح أن هناك وعوداً كثيرة قد بطلت بسبب عدم وفاء الأمراء بها. كما توضح لنا أن الذين استطاعوا تقليد الثعلب بمهارة حققوا أفضل نجاح. ولكن لابد لك أن تكون قادراً على إخفاء هذه الصفة بمهارة، وتستطيع التمويه والخداع. حيث إن البسطاء من الناس على استعداد لقبول أي أمر واقع، ومن يخدعهم سيجد من بينهم من يقبل أن ينخدع بسهولة.

ولن أذكر سوى مثال حديث واحد، حيث لم يفعل "الإسكندر السادس شيئاً سوى التغرير بالناس، فلم يفكر بغير ذلك، ودائما ما واتته الفرصة لتحقيقه. فلم يتفوق عليه أحد في قدرته على توفير الضمانات، وتأكيد الأمور بالحلف الكاذب، ولم يتفوق عليه أحد في عدم الوفاء بالعهد، وكانت حيله دائماً موفقة تحت أي ظروف، لأنه كان يفهم هذا الأمر جيداً.

وليس من الضروري للأمير أن تكون لديه كل الخصال التي سبق ذكرها، على أنه من الضروري أن يبدو عليه أنه يتصف بها. وأستطيع أن أقول : إن المحافظة على التحلي بهذه الصفات ، والحفاظ عليها أمر خطير، لكنه أمر مفيد على أي حال. وعلى ذلك فمن المفيد أن يبدو الأمير رحيماً ، وفياً حلو الصفات ، صادقا ، متدينا ، وأن يكون كذلك فعلاً ، وليس مظهراً فقط. ولكن

يجب أن يتــهيأ عقلــك لكــي تتحــول إلى أضــداد هــذه الصفــات عنــد الحاجــة. ويجب أن يكون من المفهوم أن الأمير حديث العهد بالإمارة لا يمكنه مراعاة كل ما يعتبره الناس خيراً، وذلك لأنه في سبيله للحفاظ على الدولة قد يضطر للقيام بأعمال ضد الوفاء والإحسان والصفات الحسنة والديــن. ولذلــك فعليــه أن يعــد عقله للتكيف مع أي ريح قد تهب عليه، ومع تغييرات المستقبل. كمــا يجــب عليه (كما سبق أن قلنا) أن لا يبتعد عن الخــير قــدر الإمكــان مــع قدرتــه علــى ارتكاب الشرور إذا اضطر إليها.

وعلى الأمير أن يصون لسانه فلا ينطــق إلا بمــا يســبغ عليــه مــن الصفــات الخمس الطيبة الســابق ذكرهــا. ولابــد لــه أن يبــدو رحيمــاً وصادقــاً ومســتقيماً ومتديناً أمام من يراه ويسمعه. وهذه الصفة الأخــيرة ضروريــة جــداً لأن النــاس يحكمون على ما يرونه بأعينــهم، وليــس علــى مــا يدركونــه، فكلنــا يســتطيع الرؤية، لكن قلة قليلة منا تستطيع أن تدرك واقع الحال الذي أنت عليه، وهي غير قادرة على مواجهة الكثرة الــتي تحميــها مهابــة الأمــير. وفي كافــة أعمــال البشر -وخاصة الأمراء- فإن **الغاية تبرر الوسيلة**، وهذا حكم لا يمكن نقضه؛ فعلى الأمير إذن أن يــهدف للفــوز بالولايــة والمحافظــة عليــها، وســوف يحكــم الجميع على وسائله بأنها شريفة ويمدحونها أيضاً. فعامة الناس يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجي. وهذا العالم لا يتكون إلا من هؤلاء العامــة. أمــا غير الساذجين فهم قلة تنعزل حين تجد الكثرة مجتمعة حــول الأمــير. وهنــاك أمير في عصرنا - لا داعى لذكر اسمه - كان كــل مــا يفعلــه هــو الدعــوة للســلام والوفاء، وهو في الحقيقة عدو لهما، ولو أنه اهتم بأي منهما في مناسبات عديدة لضاعت منه دولته وخسر اسمه.

١٩ كيف نتجنب الاحتقار والكراهية ؟

أما وقد تحدثنا عن أهم الصفات التي نتناولها في هـذا الكتـاب، فسـأعالج الآن بالتفصيل كافة الصفات الأخرى. فيجب على الأمير، كما قلت سابقاً أن يجتنب كل ما يجعل الناس يكرهونه أو يحتقرونه. ولا يكون قد قام بـدوره إلا حين يوفق في هذا الأمر. ولن يكون في بقية الرذائل أي خطر. وأول ما يجعـل الأمير مكروهاً -كما قلت من قبل- هو أن يكون جشعاً، وأن يغتصب ممتلكـات رعاياه أو نساءهم، وهذا هو ما يجـب عليـه أن يمتنـع عنـه. ومـادام الأمـير لا يعتدي على ملكية عامة النـاس أو نسـاءهم، فإنـهم سيعيشـون في رضـى، ولـن يكون أمامه سوى محاربة مطامع قلة مـن النـاس الذيـن يمكـن السـيطرة عليـهم بطرق عديدة. ويكون الأمير محتقراً حـين يعتقـد النـاس بأنـه متقلـب وطـائش ومخنث وجبان وضعيف العزيمـة. وهـذا يجـب تجنبـه كمـا يتجنـب القبطـان صخرة قاتلة. ومن واجبه أن يحافظ على ظهور أعماله بصورة تعكس العظمة ، والقدرة ، والمجد، وألا يقبل النقض فيما يحكم به بـين رعايـاه، ويتمسـك بمـا يصدر من قرارات حتى لا يفكر إنسان في أن يضلله أو يخدعه.

إن الأمير الذي يخلق هـذا الـرأي عـن نفسـه عنـد النـاس يحظـى بسـمعة عظيمة. ومن الصعب أن يتآمر عليه أي إنسـان. ولـن يعتـدى عليـه أي معتـد بسهولة، حيث إنه يعرف أنه قدير، تحترمه رعيته. ويجـب علـى الأمـير أن

يخشى شيئين: الأول داخلي وله علاقة بالرعايا، والثاني خارجي وله علاقة بالقوى الأجنبية. يستطيع الأمير أن يحمي نفسه من الأمر الثاني بالأسلحة الجيدة. والأصدقاء المخلصين، وهؤلاء الأصدقاء يتوافرون بسهولة مادام يملك الأسلحة الجيدة. أما الأحوال الداخلية، فإنها ستظل هادئة دائماً ما لم تثيرها مؤامرة فتضطرب الأحوال، ولم يحدث اضطراب في الخارج. وحتى إذا افترضنا أن قوات أجنبية سعت إلى الهجوم على الأمير، فإنه سيتحمل دائماً ويتمكن من مواجهة كل الصعاب، وذلك مثلما حدث مع "نابيس" الإسبرطي. أما بالنسبة للرعايا، فيجب عليه أن يحتاط من تآمرهم عليه سراً. ، وذلك إذا كانت رعيته لا تعمل وفقاً لنصائح أجنبية. وهذا من الممكن له تجنبه جيداً بالبعد عن أن يكون محتقراً أو مكروها، وذلك ببقاء الشعب راضياً عنه، ومن الضروري تحقيق هذا الأمر ، وكما قلت تفصيلاً من قبل. كما أن أفضل علاج للأمير ضد أي مؤامرات هو حب الشعب له. لأن من يتآمر يعتقد أنه سيرضي الشعب إذا اغتال الأمير. لكنه لو علم أنه سيثير جموع المواطنين بفعلته، فإنه سيتجنب تلك الفعلة. لأنه سيواجه بذلك مشكلات لا تعد ولا تحصى. وهذا ما يجعل كثيرا من المؤامرات تقع دون أن تنجح، وكل متآمر لا يستطيع العمل بمفرده، ولن يجد له شريكا سوى من الناقمين، والناقم يكتشف مقصدك بسرعة عندما تتبين له نية المتآمر، فيأمل تحقيق فائدة من وراء اتباعه لك، لكنه من ناحية أخرى يرى فيما تعرضه عليه أمراً محفوفاً بالمخاطر، ولابد لكي يستجيب لك أن يكون واحداً من اثنين: إما صديق مخلص لك أو عدو شديد العداوة للأمير. ولتوضيح هذا الأمر بإيجاز أقول: إن المتآمر لن يجد حوله سوى الخوف والحقد

والشك والعقاب. أما الأمير فهو محاط بقوة الحكم والقوانين والأعوان الذين يحمونه وولاية تدافع عنه. وإذا ما أضفنا إلى ذلك إرادة الشعب المحيط به، عندئذ يستحيل أن يقدم أي إنسان على أن يتآمر عليه. كما أن المتآمر يشعر بالخوف قبل تنفيذ المؤامرة، وسيشعر بالخوف أيضاً بعد إنجازها لأن الشعب سيكون عدواً له في هذه الحالة، ولا ملاذ له منه.

ولدينا العديد من الأمثلة على ذلك، ولكني سأكتفي بمثال يذكره آباؤنا. لقد تآمر "الكنسكي" على "هانيبال بنتوفلي" أمير بولونيا، وهو جد "هانيبال" الحلي ولم يكن له أي أقارب سوى "جيوفاني" وكان لا يزال طفلاً في ذلك الوقت. ولكن بعد الاغتيال ثار الشعب وقتل "الكنسي" جميعاً وذلك بسبب السيرة الطيبة التي تتمتع بها عائلة "بنتيفولي" في ذلك الوقت. وقد كانت عائلة عظيمة لدرجة أن أهل بولونيا حين عرفوا أن هناك فرداً من أسرة "بنتيفولي" يعيش في "فلورنسا"، وكان يعتقد أنه ابن حداد، ذهبوا إليه ليحضروه، ونصبوه حاكماً على المدينة، وظل يحكمها حتى أصبح "جيوفاني" شاباً وفي سن مناسبة لتولي الحكم، حيث لم يكن هناك خليفة آخر لهانيبال سواه.

وعلى ذلك فإن على الأمير ألا يهتم بالمؤامرات إذا كان الشعب يناصره ويحبه، ولكن إذا كان يكرهه ويعاديه، فعليه أن يخاف من كل فرد يخشى كل شيء. إن الولايات التي تقوم على نظام جيد وأمراء ذوي عقل أولي همة، لا يجعلون النبلاء يضيقون بهم، ويجعلون الشعب راضياً عنهم، ويحافظون على هذا الرضا. وهذا من أهم الأمور التي يجب أن يهتم الأمير بها.

وفرنسا من الممالك التي تتمتع بنظام حكم جيد في عصرنا الحالي، ففيها عدد لا يحصى من المؤسسات الصالحة ، وهي ما يعتمد عليه الملك لسلامته وحريته. وأول هذه المؤسسات هو البرلمان بما له من صلاحيات، وذلك لأن من أقام هذه المملكة يعرف مطامع علية القوم ، وغطرستهم ، ويعرف أنه من الضروري أن يكبح جماحهم. وهو يعرف ـ من ناحية أخرى ـ الكراهية التي يشعر بها الشعب تجاه علية القوم، وهي تقوم على الخوف، وحين أراد أن يشعرهم بالأمن لم يشأ أن يجعل هذا الأمر من مهام الملك الخاصة حتى يجنبه سخط الشعب لو أنه جامل النبلاء، ولذلك أنشأ حكماً ثالثاً (البرلمان) يكبح جماح النبلاء دائماً ويجامل البسطاء. وما كان من الممكن فعل ما هو أفضل من ذلك، أو الاحتياط لسلامة الملك والملكة بطريقة تتفوق على ذلك، وختاماً أقول : إنه على الأمير أن يحترم نبلاء ولايته، لكن عليه أيضاً ألا يجعل عامة الشعب يعادونه.

وقد يبدو للبعض أننا عندما نتناول حياة كثير من الأباطرة الرومان أنها تعارض رأيي، فبعضهم قد عاش حياة النبلاء وأظهروا قوة عظيمة، ومع ذلك فقدوا إمبراطورياتهم، وقتلهم من تآمر عليهم من رعاياهم. وعندما أود الرد على هذه الاعتراضات، فإني سأناقش صفات بعض الأباطرة مبيناً أسباب هلاكهم التي لن تختلف عما قلت، وسأتناول أيضاً بعض الأمور التي يجب أن يلاحظها كل من يقرأ عن هذه العصور. وأكتفي بالحديث عن جميع الأباطرة الذين تعاقبوا على الإمبراطورية بداية من "ماركوس" الفيلسوف حتى "ماكسيمينوس" وهم : "ماركوس" وولده "كومودوس" و"برتينكس" و"جوليانوس"

و"سيفروس" وولده "أنطونيوس" وولده "كراكلا" و"ماكرينوس" و"هاليوجابالوس" و"الإسكندر" وماكسيمينوس" وأول ما يمكن ملاحظته هو أن أباطرة الرومان كان أمامهم صعوبة ثالثة وهي ضرورة تحمل قسوة الجنود وجشعهم، وهذا قد بلغ مداه حين أصبح سبباً في سقوط الكثير من الأباطرة، فلم يكن من المستطاع إرضاء الشعب والجيش معاً بسهولة، بينما كان على الأمراء غير الأباطرة أن يواجهوا مطامع الطبقة الراقية ومغالاة الشعب فقط. فالشعب يحب الهدوء، وبالتالي يجب الأمراء المسالمين، بينما يفضل الجنود الأمير ذا الروح العسكرية والكبرياء والشدة والجشع، وهم يرون أن يمارس هذه الصفات مع الشعب كي يحصلوا منه على رواتب مضاعفة، ويجدوا لشجاعتهم وشدتهم متنفساً. ولذلك حدث أن هلك كل الأباطرة الذين لم يعرف عنهم القدرة على ضبط الطرفين معاً. حيث اقتصر عدد كبير منهم (وهم من كانوا حديثي العهد بالإمبراطورية وعرف صعوبات هذين الاتجاهين المتضادين) على إرضاء الجند، ولم يفكر في أن يسيء إلى شعبه، هو اختيار حتمي إذا كان الأمير غير قادر على تجنب كراهية طرف من الطرفين. وعليهم أولا ألا تكرههم جموع الشعب، فإن لم يستطيعوا تحقيق ذلك، فعليهم أن يفعلوا كل ما هو مستطاع لتجنب كراهية الجانب الأقوى لهم. ولذلك فإن الأباطرة حديثي العهد، كانوا في حاجة إلى أشياء محددة، فناصروا الجنود أكثر من مناصرتهم للشعب. وتتوقف فائدة ذلك من عدمها على إدراك الأمير لكيفية المحافظة على سمعته الطيبة بين أفراد الشعب. وهذه هي الأسباب التي أدت إلى النهايات السيئة لـ"ماركوس" و"برتيناكس" و"الإسكندر". فقد كانوا جميعاً متواضعين، يحبون العدل، ولا يحبون الشدة

وأهل لطف ولين. وقد عاش "ماركوس" وحده عزيزاً ومات كريماً ، لأنه وصل إلى الإمبراطورية بحقه الموروث، دون تفضل من الشعب أو الجيش، بالإضافة إلى أنه كان يتصف بكثير من الفضائل التي جعلته محترماً، وقد حافظ طيلة حياته على الفريقين ولم يتجاوز أي منهما حدوده. ولم يكن مكروهاً أو محتقراً أبداً. لكن تنصيب "برتيناكس" إمبراطوراً بغير رغبة من الجنود الذين قد ألفوا الفوضى في عهد "كومودوس" فلم يستطيعوا مجاراة الحياة الشريفة التي أرادها "كومودوس"، ولذلك أصبح مكروهاً، إضافة إلى احتقاره لكبر سنه، فسقط سريعاً في بداية حكمه.

ومن هنا يتضح أن الأعمال الصالحة قد تجلب الكراهية ، كالأعمال الشريرة، ولذلك فإن الأمير الذي يريد أن يحافظ على ولايته أن يقترف بعض الشرور، كما سبق أن أوضحت. وذلك لأنه إذا فسد طرف من الأطراف الثلاثة، سواء كان الشعب ، أو الجيش ، أو النبلاء ، وكنت تعتبره ضرورياً من أجل المحافظة على مركزك، فيجب عليك أن تتبع هواه وترضيه، وهنا تؤذيك الأعمال الصالحة.

وإذا تحدثنا عن الإسكندر الذي كان طيباً لدرجة أنهم أثنوا عليهم بقولهم إنه لم يعدم أحداً خلال الأربع عشرة سنة التي قضاها في الحكم دون إجراء محاكمة عادلة له. لكنه اعتبر مخنثاً وأنه أجاز لوالدته أن تسيطر عليه، وهكذا احتقره الناس وسقط في الهاوية، فتآمر عليه جيشه وقتله.

وحين ننظر بتمعن إلى صفات "كومودوس" و"سيفيروس" و"أنطونيوس" وكاراكلا" و"ماكسيمينوس" نجد أنهم قد وصلوا في القسوة والجشع إلى أقصى

حد، ولم يفرضوا على الشعب أي شيء يسيء إليه إرضاء للجنود، وكانت نهايتهم جميعاً سيئة عدا "سيفيروس". حيث كانت له القدرة التي مكنته من أن يحكم حكما موفقا، بأن حافظ على جنوده كأصدقاء له، بالرغم من بطشه بالشعب، وذلك لأن صفاته جعلته يحوز إعجاب الشعب والجنود معاً، حتى أصبح الشعب مدهوشاً لأعماله بينما تابعه الجنود وهم راضون.

ولما كانت أعمال هذا الحاكم عظيمة وجديرة باحترامه كأمير حديث العهد، فإني سأوضح باختصار كيف أنه أجاد استخدام صفات الثعلب والأسد، حيث يجب على الحاكم أن يقلدهما. بما أن "سيفيروس" قد كان قائداً للجيش في "سلافونيا"، ويعرف تكاسل الإمبراطور "جوليانوس"، لذلك فقد أقنع القوات بأنه من الأفضل أن يذهبوا إلى روما للثأر لمقتل "برتيناكس" الذي كان الحرس البريتوري قد قتله. وسار بجيشه إلى روما تحت ستار هذا الإدعاء. ولم يكشف عن مطامعه في العرش، ووصل إلى إيطاليا قبل أن يعرف عنه أنه قد تحرك إليها. وعندما وصل روما انتخبه مجلس الشيوخ إمبراطوراً بدافع من الخوف، وقتل "جوليانوس". وبعد هذه البداية، لم يكن أمامه للسيطرة التامة على الإمبراطورية سوى عقبتين، إحداها في أسبانيا حيث يوجد "نجرينوس" على رأس جيوش آسيا وقد نصب نفسه إمبراطوراً والأخرى كانت في الغرب حيث "البينوس" الذي يطمع في الإمبراطورية. وكان إظهاره للعداء لهما معاً أمراً خطيراً ، فقرر أن يخدع ألبينوس" الذي أرسل إليه راغباً في أن يشاركه الفخر باختيار مجلس الشيوخ له ولقبه بالقيصر، ونودي به كشريك لـ"سفيروس" وذلك بأن عُرض الأمر على مجلس الشيوخ. وقد صدق "البينوس" كل هذا

واعتبره صادقاً. ولكن بعد أن هـزم "سفيروس" "نجـيروس" وقتلـه، واستتبت الأمور في الشرق، عاد إلى روما، واتهم "البينوس" في مجلس الشيوخ بأنـه سـعى إلى اغتياله، ولم يراع النعم التي تفضل بها عليه ، وأنه مضطر للذهـاب إليـه ، ومعاقبته على ذلك الجحود. ثم ذهب لملاقاتـه ، وجـرده مـن منصبـه وحياتـه معاً.

وكل من يتناول أعمال "سفيروس" بدقة سيجده أسداً مفترساً وثعلباً ماكراً، وهو مهاب وجليل عند الجميع، لا يكرهه الجيش، وكان له سلطان كبير، كمـا أن سمعته الطيبة حمته من كراهية شـعبه الـتي مـن الممكـن أن تحـدث بسـبب جشعه. لكن ابنه "أنطونيوس" كان صاحب قـدرات عظيمـة، وصفـات جعلتـه جديراً بإعجاب الشعب، ومحبوباً من الجند في نفس الوقـت، فقـد كـان رجـل حرب ، وقادراً على تحمل الصعوبات الشديدة، لا يحب تنـاول مـا لـذ وطـاب من طعام ، وكل أنواع الترف الأخرى. هي خصـال جعلـت الجيـوش جميعـها تحبه. إلا أن وحشيته وقسوته كانتا واضحتين جداً، ولم يكن لهما مثيل، وقد تسبب في قتل عدد كبير من روما، وبعد أن أعدم الكثير من الناس، أصبح كافـة الشعب يمقته، ويخشاه من حوله، حتى قتله قـائد فرقـة مـن فرقـه المائـة بـين أفراد جيشه.

والآن ننتقل إلى "كومودوس" الذي كان باستطاعته أن يحتفظ بالإمبراطورية بكل سهولة، فقد كان وريثاً لها، فهو ابن "ماركوس". وقد كان من المكـن أن يكتفي باتباع ما كان يفعله أبوه، حتى يرضى عنه الشعب والجيش معاً. ولكنه مال إلى أن يكون صارما بوحشية ، وعمل على مجاملة الجيش، حتى يسـتطيع

أن ينهب شعبه. ولكنه من ناحية أخرى أصبح حقيراً في نظر جنوده بسبب عدم حفاظه على مركزه، وذلك لأنه كان ينزل في أحيان كثيرة إلى حلبات المصارعة ، ويتحدى المصارعين، بالإضافة إلى أعمال مشينة أخرى لا تليق بعظمة الإمبراطورية. ولما كان مكروهاً من ناحية ، ومحتقراً من ناحية أخرى، تآمروا عليه وقتلوه.

إما إذا أردنا وصف شخصية "مكسيمينوس". فقد كان رجل حرب بارعا وكانت الجيوش قد ضاقت بتخنث الإسكندر الذي تحدثنا عنه قبل قليل، فانتخب "مكسيمينوس" بعد موت الاسكندر إمبراطوراً، لكنه لم ينعم بذلك طويلاً، فهناك شيئان قد جعلاه مكروهاً وحقيراً، الأول : هو أصله الوضيع المعلوم للجميع، مما سبب احتقاره في جميع الأحوال. والثاني أنه وفي بداية عهده أجل الذهاب إلى روما ليعتلي العرش الإمبراطوري، وقد عرف عنه الصرامة الشديدة، كما اقترف على يد نواب الحكام أعمالاً قاسية متعددة ، وذلك في روما وفي نواح متفرقة من الإمبراطورية. لذلك فإن الاستياء من وضاعة أصله ، والكراهية خوفاً من وحشيته، دفعا الجميع إلى السخط عليه، فبدأ التآمر في أفريقيا أولاً ثم في مجلس الشيوخ، وكل شعب روما وإيطاليا فيما بعد. انضم إليهم الجنود الذين غضبوا من قسوته حين كانوا يحاصرون "أخيلية" وكان حصارها أمراً شاقاً. وحين أدركوا أن له أعداء كثيرين، لم يخافوا منه وقتلوه.

ولن أتطرق للحديث عن "هليوجالوباس" وماكرينوس" و"جوليانوس" فقد أخذوا جميعاً على حين غرة، وكانوا غاية في الاحتقار ، لكني أختتم هذا المقال

بقولي: "إن أمراء عصرنا هـذا يلقـون صعوبـات أقـل بكثـير ممـن ذكـرت، فـهم مضطرون لإرضاء جيوشهم بدرجة كبيرة، وهم إن كانوا ذوي وضع خاص إلا أن ما يواجهونه من صعوبات سرعان ما ينتـهي، حيـث لا يوجـد مـن بينـهم مـن يملك جيشاً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإمارات الحكم والمقاطعات كمـا كـان الحـال في الجيوش الرومانية. فحينذاك لم يكونوا حريصين على إرضاء الجند قبل إرضـاء الشعب سوى لأن الجند أقدر علـى أن يفعلـوا مـا لا يمكـن للشـعب أن يفعلـه. والآن وفيما عدا الأتراك ومماليك مصر، فإن إرضاء الشعب أكثر من الجنود أمـر يلتزم به الأمراء كافة لأن الشعب يستطيع أن يفعل ما لا يفعلـه الجنـود. وأنـا استثني سلطان الأتراك من ذلك لأنه يحتفظ باثني عشـر ألفـا مـن المشـاة حولـه دائماً، وخمسة عشر ألفا من الفرسان، وعليهم تتوقـف سـلامة المملكـة وقوتـها. وكان من الضروري بالنسبة له أن يؤجـل أي شـيء آخـر حتـى يتـأكد مـن ولاء هؤلاء جميعاً له. وكذلك الحال بالنسبة للمماليك، فالسلطان ملزم بالحفاظ على ود الجنـود ، دون النظـر إلى الشـعب، ويمكننـا أن نلاحـظ أن ولايـة السـلطان تختلف عن ولايات الأمراء الآخريـن فـهي تشـبه البابويـة المسـيحية، فـهي لا يمكن أن تسمى ولاية ملكية وراثية، ولا هي مملكة حديثة العهد، فأبناء الأمـير الذي يرحل لا يرثونه ولكن يرثه خليفته في الحكـم ويختـاره أصحـاب النفـوذ. وهو نظام قديم ولا يمكن اعتباره مملكة حديثة العهد، لأنه يخلـو مـن الصعـاب التي توجد في الإمارات الجديدة وعلى الرغم من أن الأمير يكون جديداً إلا أن قواعد الولاية قديمة ومنتظمة، وهو يستقبل كما لو كان وريثاً للعرش.

وإذا عدنا إلى موضوعنا فإني أقول: كل من يدرس الحجج السابقة سيعرف

أن أسباب سقوط الأباطرة الذيـن ذكرتـهم كـانت إمـا الكراهيـة ، أو الاحتقـار، وسيعرف أن بعضهم قد سار على طريق، والبعض الآخر سار على طريـق آخـر. وفي كلا الطريقين نجح البعض ، وفشل البعض الآخر. لقـد حـاول "برتينـاكس و"الإسكندر" تقليد "ماركوس" بلا فائدة بل إنها كـانت محـاولات ضـارة، فقـد كان كلاهما أميرا حديث العهد، وكـان "مـاركوس" أمـيراً موراثيـاً. وهـو نفـس حال "كاراكلا" و"كمودوس" و"ماكسيمينوس" فقد أضيروا جميعـاً مـن تقليدهـم لـ"سفيروس" فلم تكن لهم القدرة الكافية التي تمكنهم من السـير علـى منهجـه. ولذلك فإن الأمير حديث العهد لا يستطيع تقليد أعمال "ماركوس" أثناء ولايته، ولا لزوم لأن يقلد "سفيروس" لكنه عليه أن يأخذ من هذا وذاك ما يفيده ويرفعه ليحافظ على ولاية وصل إليها وهي قائمة وسالمة بالفعل.

* * * *



حول ما إذا كانت القلاع والأشياء الأخرى التي يلوذ بها الأمراء مفيدة أم ضارة

لقد تعمد بعض الأمراء نزع السلاح من مواطنيهم من أجل ضمان سلامة حكمهم، بينما حافظ غيرهم على ما يتبعه من ولايات مقسمة إلى أجزاء كما كانت. وهناك من سعى إلى إثارة العداوة فيما بينها، ومنهم من أراد أن يكسب أولئك الذين شكوا فيهم في بداية الحكم إلى جانبهم. وبعضهم شيد الحصون والآخر دمرها وهدمها، وإن كان الإنسان لا يستطيع أن يحكم حكماً قاطعاً في هذه الأمور دون أن يتعمق في تفاصيل حياة الولاية التي سيتحدث عنها، ولذلك سأتحدث عنها بطريقة عامة قدر الإمكان.

لم يشتهر أي أمير بأنه ينزع سلاح رعاياه، بل إنه على العكس من ذلك كان يسلحهم إن وجدهم عزلاً، وأنت حين تسلحهم تكون هذه الأسلحة ملكا لك. وسيخلص لك من كان في قلبك شك من ناحيته، ويستمر المخلصون على ولائهم، وسيتحول من كان مجرد واحد من الرعية إلى واحد من الأنصار، ولما كان من المستحيل تسليح الرعية بالكامل، لكنك عندما تسلح البعض منهم تستطيع أن تعامل الباقين معاملة بأمان أكثر، وهذا الاختلاف في المعاملة يجعل رجالك أكثر ولاء لك. كما أن الآخرين سيلتمسون لك العذر عندما يجدون أن من يقومون بالواجبات الخطرة هم من ينالون تقديراً أكبر. أما إذا نزعت منهم

السلاح ، فإنك تسيء بذلك إليهم، وتبدو بمظهر غير الواثق منهم، إما لأنهم من الجبناء أو لقلة ثقتك فيهم، وكل من هذين التفسيرين يولد كراهيتك في نفوسهم. وبما أنك لا تستطيع أن تبقى أعزل بدون سلاح، فإنك ستضطر إلى استئجار الجنود بمبالغ عالية. وإذا افترضنا أن هؤلاء الجنود سيكونون صالحين، فإنهم لن يكونوا قادرين على الدفاع عنك ضد أعداء أقوياء ، وضد رعايا مشكوك في أمرهم، ولذلك فإن رعايا الأمير الجديد في مملكة جديدة يكونوا دائماً مسلحين حينما يستولى على الإمارة، والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك.

ولكن الأمير، عندما يكسب ولاية جديدة ويضمها إلى ولايته القديمة، فمن الضروري أن ينزع سلاح هذه الولاية عدا من وقف بجانبه وناصره عند الاستيلاء عليها، وحتى هؤلاء يجب على الأمير أن ينتهز الفرصة والوقت المناسب ، ويجعل منهم ضعفاء ومخنثين، وأن يهيئ كل شيء ليجعل جميع أسلحة الولاية الجيدة في أيدي الجنود الذين يعيشون بالقرب منه في ولايته القديمة.

إن أجدادنا والذين يعتبرون من الحكماء اعتادوا أن يقولوا :الأحزاب السياسية ضرورة للسيطرة على "بستويا" ، والقلاع وسيلة للسيطرة على "بيزا". وهم قد أثاروا الخلافات في بعض المدن التابعة لهم حتى يستطيعوا حكمها بسهولة. وهذا أمر صالح في ذلك الوقت الذي كانت فيه إيطاليا تنافس القوى الكبيرة، ولكنه لا يبدو لي مناسباً في الوقت الحاضر. وذلك لاعتقادي بأن الأحزاب التي تنشأ بهذه الطريقة لا تأتي بأي فائدة.

وأعتقد أيضاً أن البنادقة قد رحبوا بالتفرقة بين كتلتي "الجولف" و"الجبلين" في المدن الخاضعة لهم. ومع أنهم لم يسمحوا لهم بإراقة الدماء إلا

أنهم شجعوا وجود الخلافات. وذلك لأن أبناء هذه المدن حين ينشغلون بخصوماتهم الخاصة لا يتحركون ضد البنادقة. لكنهم لم يصلوا إلى أي فائدة من ذلك على أي حال، فكما رأينا أنه بعد الهزيمة في "فايلا" تشجعت جماعة من المواطنين وقامت فجأة بالاستيلاء على كامل الولاية.

وما من شك في أن الأمراء يصبحون عظماء حين يتغلبون على ما يواجهونه من معارضة ومن صعاب. مما جعل البعض يظن أنه على الأمير العاقل أن يثير العداء بين الرعية بدهاء حين تسنح الفرصة، حتى تزيد عظمته حين يسيطر عليه ويكبحهم.

إن الأمراء-وخاصة حديثي العهد منهم ـ قد وجدوا من هؤلاء الذين كانوا ينظرون إليهم بشك في بداية عهدهم إخلاصاً أكثر مما وجدوه فيمن كانوا موضع ثقتهم منذ البداية. وقد حكم "بانولفوبتروتشي" ولايته بمن شك فيهم اكثر من حكمه لها بغيرهم. ولكننا لن نسهب في هذا الموضوع. ولكني أقول أن الأمير من الممكن أن يكسب ود من كانوا أعداءه عند بداية حكمه بسهولة وسيخلصون له أكثر من غيرهم وذلك لأنهم يدركون أن عليهم أن يبطلوا بأعمالهم ذلك الرأي السيئ الذي سبق للأمير أن كونه عنهم. وبهذا فإن الأمير سيستفيد منهم أكثر من هؤلاء الذين اعتادوا خدمته فأهملوها لاطمئنانهم إليه.

ولكني أغفل ذكر الأمير الذي أخذ ولاية جديدة بعد أن ساعده أهلها سراً، لآن الموضوع يتطلب ذلك، وأرى أن عليه أن يضع في اعتباراته تلك الدوافع التي أدت بهم إلى ذلك. فإن لم يكن ذلك بسبب حبهم له، وإنما فقط بسبب غضبهم من أوضاع الولاية السابقة، فإنه سيواجه متاعب كبيرة ومشكلات

كثيرة، وذلك لأن رضاهم عنه من المستحيل.

وحين نتناول أسباب الأمثلة التي استخرجتها من الأزمنة الحديثة والقديمة نرى أن اكتساب صداقة الذين كانوا غير راضين عنك في النظام القديم، ومن كانوا أعداء لنا في بداية العهد، أسهل كثيراً من كسب صداقة من ساعدوا الأمير على الاستحواذ على ولاية جديدة لسخطهم على النظام القديم.

وقد تعود الأمراء على إقامة القلاع حتى يستطيعوا السيطرة على ولاياتهم بسلام، وهي تعتبر وسائل دفاعية قوية ضد من ينوي لهم شراً، كما أنها ملاجئ آمنة عند حدوث هجوم مفاجئ وأنا مع هذه الطريقة التي استخدمت منذ القدم. إلا أننا نرى أن "نيقولا فيتللي" يهدم في عصرنا الحالي قلعتين في "سيتا دي كاستللو" لكي يحتفظ بالولاية، كما أن دوق أوربينو "جيدو بالدو" يدمر كافة الحصون في أراضيه التي طرده منها قيصر "بورجيا". لكنه حين عاد إليها وجد أن ضياع بلاده مرة أخرى وهي بدون حصون أصعب مما لو كانت لازالت باقية. وعلى هذا فإن فائدة القلاع تتوقف على الفترة الزمنية التي تمر بها. وهي إن كانت ذات قيمة جيدة في وقت ما، نجدها مضرة في وقت آخر. وعلى ذلك يمكننا أن نتناول الأمر بهذه الطريقة: على الأمير الذي يخشى شعبه أكثر من خشيته للأجانب أن يقيم القلاع، وعلى من يخشى الأجانب أكثر من خشيته لشعبه أن يظل بدونها. إن قلعة ميلانو قد تسببت وسوف تسبب لعائلة "سفورتسا" متاعب تفوق أي اضطراب آخر شهدته هذه الولاية. ولهذا فإن أفضل الحصون هو ما يقوم على حب الشعب لأميرهم فإنك إذا ملكت الحصون القوية فهي لن تحميك من شعب يكرهك، إنه سيشهر السلاح في

وجهك ولن يكون في حاجة لأجانب يساعدونه. ولم نر أي مثل في عصرنا الحاضر لحصون استفاد منها الحاكم فيما عدا الكونتيسة "فورلي" عندما مات زوجها الكونت "جيرولامو" . فقد استطاعت بفضل حصنها أن تفر إليه من الشعب ، وتنتظر المساعدة من "ميلانو" من ثم تستعيد الولاية. وقد كانت الظروف في ذلك الوقت لم تسمح للأجنبي بأن يساعد الشعب. وفيما بعد لم تستفد الكونتيسة مما تملك من قلاع أي فائدة، وذلك حين هاجمها قيصر "بورجيا" وكان شعبها يعاديها فتحالف مع الأجنبي. وقد كان من الأفضل للكونتيسة أن تكون محبوبة من شعبها بدلاً من أن تملك القلاع والحصون. وعلى ذلك فإني أمتدح من يقيم الحصون ويستخدمها استخداماً صحيحاً في وقت مناسب، كما أمتدح من لا يقيمها عندما يكون في إقامتها خطر عليه. وألوم كل إنسان يعتمد على القلاع والحصون ويثق بها ولا يهتم كثيراً بكراهية الشعب له.

* * * *

٢١ ماذا يفعل الأمير كي ينال الشهرة ؟

لا شئ يؤدي إلى احترام الأمير بشدة سوى أعماله العظيمة، والأعمال غير العادية بصفة عامة. وفي عصرنا هذا لدينا مثال وهو "فريناند" ملك "أرجون"، وملك "أسبانيا" الحالي. ويمكننا أن نسميه أميرا حديث العهد، فقد أصبح أول ملك في العهد المسيحي، بعد أن كان ملكاً ضعيفاً، وذلك بعدما اكتسب الشهرة والمجد. وإذا ما تناولنا أعماله كلها فسنجدها كلها أعمالا عظيمة جداً، وبعضها خارق للعادة. فقد هاجم غرناطة في بداية عهده، وكانت هذه الحملة أساساً لمجده. فقد عمل ذلك وهو لا يزال خالي البال، لا يخشى تدخل أحد. كما جعل عقول بارونات "كاستيل" تنشغل بهذه الحملة، فلم يخطر ببالهم تجديد الأوضاع السياسية، ولم ينتبهوا إلى أنه بذلك قد نال شهرة وسلطاناً على حسابهم. كما أنه صان جيشه بأموال الكنيسة والشعب، ومن خلال تلك الحرب الطويلة وضع أسساً لقوته العسكرية التي اشتهر بها فيما بعد. بالإضافة إلى استخدامه للشدة الدينية ، مما مكنه من أن يقوم بحملات أعظم من الحملة السابقة، فقضى على المغاربة قضاء مبرماً ، وطردهم من مملكته، كل ذلك تحت شعار الدين. وهو مثال سياسي نادر، حيث هاجم أفريقيا بنفس الطريقة أيضاً، كما قام بحملته على إيطاليا ، وعلى فرنسا فيما بعد. وكان يصطنع مشكلات كبيرة ألهت عنه الرعية ، وجعلتهم مشغولين بصفة دائمة.

وقد نتجت هذه المشكلات عن بعضها البعض فلم يعط الناس فرصة للاستقرار والعمل ضده.

ويستفيد الأمير أيضاً فائدة كبرى عندما تكون له أعمال عظيمة وبارزة في الإدارة الداخلية، مثل ما ينسب إلى "برنابو الميلاني". ومن الناحية الدينية يجب على الأمير البحث عن طريقة مناسبة للثواب والعقاب، وهو أمر كثر الحديث عنه، وهما يأتيان عندما يقوم الفرد بعمل فز سواء كان حيراً أم شرا. وعلى الأمير أيضاً أن يسعى في كل الأعمال التي تكسبه شهرة بالعظمة والتميز.

ويُحترم الأمير بشدة إذا كان مخلصا في الصداقة أو شديد العداء، وذلك حين يعلن بصراحة تامة تأييده أو عداءه لفرد ما. وهي سياسة اكثر نفعاً له من أن يبدو محايداً دائماً. فإذا بدأ القتال بين دولتين متجاورتين، فقد يخشى انتصار أي منهما، أو لا يخشاه. وأيا كانت الحالة من الأفضل لك أن تعلن موقفك بوضوح، وتعلن الحرب. فإذا لم يتضح موقفك، فإنك ستقع فريسة للمنتصر في الحالة الأولى. وهذا يرضي الدولة المنتصرة ويقنعها. ولن تستطيع تبرير موقفك أو الدفاع عن نفسك، ولن يقبل أحد مقابلتك. فكل منتصر لا يريد أصدقاء مشكوك في أمرهم، لم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة. كما أن المقهور لن يقابلك أيضاً لأنك لم تستل سلاحك وتخاطر بنفسك من أجل قضيته.

لقد أرسل الأيتوليون "أنتيوكس" إلى بلاد الإغريق لطرد الرومانيين منها، كما أرسلوا الخطباء إلى الآخيين الذين كانوا أصدقاء الرومانيين لتشجيعهم على البقاء على الحياد. ومن ناحية أخرى، طلب منهم الرومانيون أن يحملوا السلاح ويعاونوهم. وعرض الأمر على مجلس الآخيين للبحث، وسعى سفير "أنتيوكس"، ورد السفير الروماني على ذلك بقوله : "إن ما يقال عنه خير

لدولتكم وذو فائدة لها، هو أبعد شئ عن الحقيقة، لأنكم إن لم تتدخلوا في الحرب ستصبحون فريسة للمنتصر فيها، ولن يذكر لكم أي فضل أو تنالوا أي ذكر."

وفي أغلب الأحوال يطلب منك صديقك أن تفصح عن موقفك وتشهر السلاح، أما من هو ليس صديقا لك فسيطلب منك البقاء على الحياد. والأمراء ضعاف الهمة عادة ما يفضلون الحياد تحاشياً للأخطار، وهي طريقة غالباً ما تدمرهم. لكن الأمير حين يعلن عن موقفه صراحة ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضممت إليه، فسيظل يدين لك بالمعروف حتى لو كان قوياً وبقيت أنت تحت سلطانه، وستستمر الصداقة بينكما بعد أن بدأت. ولن تصل خيانة الرجال بأي حال من الأحوال إلى أن يبطشوا بك وأنت من أحسنت إليهم في يوم من الأيام. بالإضافة إلى أنه يندر أن يتم النصر بصورة تجعل المنتصر يتحلل من كل أعمال الخير، وخاصة العدل. أما إذا هزم حليفك، فيمكنك الاعتماد عليه وسيساعدك مادام قادرا على ذلك وتشتركان في قدر واحد قد يصعد نجمه من جديد. أما في الحالة الثانية التي لا يخشى فيها أي من المتحاربين من أي ناحية، يظل من الأفضل بالنسبة لك أن تناصر أحدهما، فأنت تسعى إلى تدمير واحد منهم بمساعدة من كان ينبغي له أن ينقذه لو كان عاقلاً، فإن انتصر – وهذا مضمون بمساعدتك له– فإنه يظل طوع أمرك.

وهنا يتحتم علينا أن نلحظ أنه من واجب الأمير أن يحذر التحالف مع من هو أقوى منه حتى يعتدي على غيره، إلا إذا كان مضطراً لذلك كما سبق أن أوضحنا، لأنه إذا ظفر هذا الحليف بالنصر ، فستظل أنت تحت سلطانه. ومن واجب الأمراء أن يتجنبوا أن يكونوا تحت إمرة وإرادة غيرهم قدر المستطاع. لقد اتحد البنادقة مع دوق ميلانو رغم أنه كان باستطاعتهم تجنب

هذا التحالف الذي أدي إلى تدميرهم. ولكن إذا لم يستطع الأمـير تجنـب ذلـك مثلما حدث في حالة الفلورنسيين عندما ذهب البابا وأسبانيا بجيوشهما للهجوم على "لمبارديا"، وينبغي للأمير حينئذ أن يتحالف مع الآخرين للأسباب السابق ذكرها. ولا يجب أن يدع الحكومة تعتقد أنها قادرة على السير بسياسة واحدة صحيحة، ولكن من الأجدر بنا أن نجعلـها تعتقـد أن كـل السياسـات مشـكوك فيها، وهذا الأمر من طبيعة كل شيء . فالإنسان عندما يحاول تجنب صعوبـة ما دون الاصطدام بغيرها، ومن الحكمـة أن نكـون قـادرين علـى معرفـة طبيعـة الصعاب التي تواجهنا وتحديد أقلها ضرراً.

وعلى الأمير أيضاً أن يُكرِّم الموهوبين ويميز القادرين، ويحمـي البـارزين في كل فن، بالإضافة إلى أنه من واجبه أن يحث مواطنيه على ممارسة العمل وهـم مطمئنو البال، سواء كان هذا العمل تجارة أو زراعة أو صناعة يعمل بها الناس. وذلك حتى لا يحجم الناس عن الإبداع فيما يفعلون خوفاً مـن المصـادرة، أو أن يحجم البعض الآخر عن بدء صناعة خوفاً من الضرائب، وينبغي مكافأة كل من يقوم بهذه الأعمال، وكذلك كل من يسعى لتحسين أحوال المدينـة ، أو الولايـة بأي طريقـة. بالإضافـة إلى أنـه يجـب عليـه أن يلـهي شعبه بالمـهرجانات ، والمعارض في المواسم السنوية المختلفة. ولمـا كـانت كـل مدينـة تتـألف إمـا مـن طوائف عمالية ، أو من طبقات اجتماعية، فإنه لا ينبغي للأمير أن يغض بصره عن كل هذه الطوائف والفئات. ويجتمع معهم من وقت لآخر. وأن يكون مثالاً أمامهم لعظيم الكرم ، والإنسانية دون أن يقلل من مستوى إجلاله واحترامه وألا يسمح بذلك أبداً في أي وقت.



حول أمناء الأمراء

إن اختيار أمناء للأمير لا يعتبر أمراً قليل الأهمية ، فالأمناء إما صالحون أو غير صالحين، وهذا يتوقف على حكمة وذكاء الأمير. ويمكننا أن نقيم الحاكم وعقله حين نرى من يحيط به من رجال. فإذا كانوا قادرين ومخلصين يمكننا دائما أن نعتبر أن الأمير من الحكماء، حيث استطاع أن يحدد قدرات أمنائه، وأن يحافظ على إخلاصهم له. ولكن إذا كانوا غير ذلك يمكننا أن نكون رأياً غير جيد عن الأمير لأنه قد أساء الاختيار.

وما من أحد تعرف على "أنطونيو دافنافرو" كوزير لباندولفو بتروتشى أمير "سيينا" إلا واعتبره رجلاً حكيما، وذلك لأن أمينه هو أنطونيو. وللرجال ثلاثة عقول مختلفة: الأول يفهم الأمور دون أن يحتاج لمساعدة من أحد. والثاني يفهمها حين يوضحها له غيره، والثالث لا يفهم الأمور بمفرده ولا حين يشرحها له أحدهم. والنوع الأول هو أكثر تميزاً، والثاني ممتاز أيضا، أما الثالث فهو عديم المنفعة، ولذا فإن باندولفو إن لم يكن من النوع الأول، فإنه من النوع الثاني على أي حال. فالأمير دائماً يستطيع الحكم على أعمال الآخرين سواء كانت خيراً أم شرا حتى وإن كان عقل الأمير غير جيد. كما أنه يستطيع التمييز بين الأعمال السيئة والأعمال الصالحة ويصحح الأولى، ويحض على

الثانية. وإذا كان الأمين لا يستطيع أن يأمل في خداع الأمير، لذلك فهو يظل صالحاً.

وهناك صفة أخرى يمكن بها للأمير أن يعرف وزيره وهي طريقة صائبة دائماً. فإذا وجت الوزير يفكر في نفسه أكثر مما يفكر فيك، وأنه يبحث عن مصلحته الشخصية في جميع أعماله، فإنه لن يكون وزيراً صالحاً، ولا يمكنك أن تعتمد عليه. فواجب من يمسك بزمام الأمور في ولاية غيره أن يفكر في الأمير فقط، ولا يفكر في نفسه أبداً. وألا يهتم بشيء سوى ما يخص الأمير. ومن ناحية أخرى ينبغي للأمير أن يصون وفاء أمينه له، فيفكر في أحواله ويكرمه ويغدق عليه، ويرفع منزلته، ويسند إليه الأعمال الكبرى. ويستطيع الأمراء وأمناؤهم الاعتماد على بعضهم البعض حتى تستمر هذه العلاقة، أما إذا شاب العلاقة غير ذلك فالنتيجة هي المضرة دائما سواء لهذا أو لذاك.

* * * *

٢٣ كيف يمكن تجنب المتملقين ؟

يجب ألا نغفل عن موضوع هام، وهو ذكر خطأ الأمير الذي لا يمكن تجنبه بصعوبة، إلا إذا كان على درجة عالية من الحكمة، أو لم يسئ الاختيار، وهو الموضع المتعلق بالمتملقين الذين يمتلئ بهم كل بلاط، فالناس يسعدون بما يخصهم، وينخدعون بالتملق، لدرجة أنهم لا يستطيعون تجنب هذا الطاعون إلا بصعوبة بالغة. وهم يغامرون باحترامهم حين يودون مواجهته، ويصبحون مُزْدَرينَ. وليس هناك طريقة أخرى أمام المرء يقي بها نفسه شر التملق سوى أن يدع الناس يدركون أنه يحب أن يسمع منهم الحقيقة. لكنك تفقد احترامهم لك لو سمحت لكل منهم أن يخبرك بالحقيقة. ولذلك على الأمير أن يتبع طريقة ثالثة، وهي أن يختار من ينصحونه من حكماء الناس، ويمنحهم الحرية التامة كي يتحدثوا إليه عما يسألهم عنه من أمور فقط وليس عن أي شيء آخر. وعليه أن يسألهم عن كل شيء، ويسمع رأيهم، ثم يتناول الأمر مع نفسه وعلى طريقته الخاصة، وأن يجتمع بنفسه مع مجالسهم، ومع كل منهم على انفراد، حتى يستطيع كل منهم أن يدرك أنه كلما كان ذا رأي حر كان أكثر قبولاً عند الأمير. ولا يجب على الأمير أن يستمع إلى غير هؤلاء الذين أعدهم لهذا الأمر، وأن يعمل بتأنٍّ ويفكر جيداً، وأن

يكون حازماً فيما يتخذه من قرارات. ومن يفعل غير ذلك إما أن يؤدي به التملق إلى التعجل، أو أنه لا يستقر على رأي أبداً، ونتيجة كل ذلك أنه يفقد اعتباره وهيبته.

وسوف أضرب مثالاً حديثاً. فقد قال القسيس "لوقا" مندوب الإمبراطور الحالي عن جلالته وهو يتحدث عنه: "إنه لم يستشر أحدا أبداً، إلا أنه لم يفعل أي شيء بناء على رغبته." وهذا يعني أن أتباعه يفعلون عكس ما تم ذكره، ولما كان الإمبراطور رجلاً كتوماً لا يحكي لأحد عن نياته، لم يستمع لأي نصيحة، وكان مَن حوله يعارضونه عندما يعرفون ما يريد حين ينفذه ويتكشف للجميع، فيخرج الإمبراطور قليلاً عن هدفه. ومن هنا يكون ما يفعله اليوم لا يفعله غداً. ولا يعرف أي أحد ما يريد أن يفعله الإمبراطور ولا ما يقصده وبالتالي لا يستطيع أحد الاعتماد على قراراته.

ولكل هذا يبغي للأمير أن يستشير دائماً، عندما يكون هو فقط في حاجة للاستشارة وليس عندما يريد غيره. وينبغي أن يكون الأمير سائلاً محنكاً، ومستمعاً متأنياً لما يسأل عنه، وأن يغضب ممن يحجم عن ذكر الحقيقة المجردة وكما هي تماماً وهو يحدثه. ويخطئ من يظن أن الأمير الحكيم حكيم بسبب طبيعته الشخصية فقط، لكن ذلك يرجع أيضاً للمستشارين المحيطين به. والقاعدة الثابتة تقول : إن نصيحة المسداة إلى الأمير غير الحكيم لن تجدي، إلا إذا كان هذا الأمير غير الحكيم قد تخلى عن ذاته وسلم نفسه لرجل يسيطر عليه تماماً في كل الأمور، وكان هذا الرجل ذا حكمة جيدة، وفي هذه الحالة سيكون حكمه صالحاً. لكن هذا الأمر لا يطول، لأن هذا الحاكم سيجرده من

الولاية. وإذا أخذ الأمير غير الحكيم المشورة من عدد كبير من الناس، فإنه لن يستطيع التوفيق بين آرائهم المختلفة أو الاختيار منها لأنه غير حكيم، وسوف يفكرون جميعاً في مصالحهم الخاصة، ويعجز هو عن تقويمهم وفهمهم. ولا يمكن أن يحدث غير ذلك لأن الناس يقولون لك الصدق إذا اضطروا لذلك. ولهذا يجب أن تكون النتيجة التي نصل إليها هي: تعود النصائح الحكيمة لأي ناصح كان إلى حكمة الأمير، ولا تعزى حكمة الأمير إلى ما يتلقاه من نصائح صالحة.

* * * *



لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم ؟

إن مراعاة ما سبق لأن ذكرناه من أمور بحكمة يجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم في الحكم، كما أنه يصبح فوراً أكثر ثباتاً في الولاية وأكثر سلامة كما لو كان أميراً منذ سنوات عديدة. والناس يتابعون أعمال الأمير الجديد أكثر من متابعتهم لأعمال الأمير الذي ورث الإمارة، وحين تعتبر هذه الأعمال أعمالا فاضلة، يرتبط به الناس ارتباطاً أوثق مما لو كان أميراً قديماً. لأن ما يحدث حالياً يجذب اهتمام الناس أكثر مما حدث في الماضي، وحين تكون حالتهم الراهنة جيدة يرضون بها ولا يبحثون عن غيرها. ولكن وعلى العكس من ذلك تماماً، فهم سوف يبذلون كل ما في وسعهم للدفاع عن الأمير. وهكذا يتضاعف مجد الأمير: فقد أرسى عهداً جديداً وهذا مجد يحسب له، والمجد الآخر يتمثل في إقامته للولاية على القوانين الصالحة والأسلحة الجيدة والأصدقاء الصالحين والقدوة الصالحة. بينما يتضاعف عار الأمير الذي يولد أميراً ويفقد عرشه بسبب افتقاره إلى الحكمة.

وإذا تناولنا من فقدوا عروشهم في عصرنا بإمعان، مثل ملك نابولي ودوق ميلانو وغيرهما، فإننا سنجد نقصاً في أسلحتهم بصفة عامة لأسباب سبق أن ناقشناها بالتفصيل، وأن بعضهم يعاديه شعبه. وإذا لم يكن الأمر كذلك فقد يكونون على غير ثقة من النبلاء، فهذه هي الأسباب التي تضيع الولايات ذات الجيوش. إن فيليب المقدوني (وليس فيليب أبو الإسكندر الأكبر) بل إنه هو

من هزم على يد "تيتوس كونتيوس" لم يكن له دولة عظيمة يمكن مقارنتها بعظمة روما وبلاد الإغريق التي شنت عليه هجوماً قوياً، ولكنه كان رجل حرب يعرف كيف يحصل على مساندة الشعب، وكيف يأمن عِلْيَةَ قومه، فاستطاع أن يستمر في الحرب ضد الأعداء سنوات طويلة. وإذا كان قد فقد سيطرته على بعض المدن في النهاية إلا أنه ظل قادراً على الاحتفاظ بالمملكة.

ولذلك على الأمراء الذين سيطروا على مملكاتهم لسنوات طويلة ألا يتهموا الحظ كسبب لفقدانهم لها، ومن الأجدر بهم أن يتهموا إهمالهم، لأنهم لم يحسبوا حساباً للاضطرابات التي قد تحدث بعد الفترات الهادئة (شأنهم في ذلك شأن حافة البشر الذين لا يتوقعون العواصف عندما يكون الطقس معتدلاً). وحين تتغير الأحوال فروا بدلاً من الدفاع عن أنفسهم. وكانوا يأملون أن يستدعيهم الشعب حينما يستاء من غطرسة المعتدين. وهذه طريقة جيدة إن لم يكن أمامهم سواها. ولكن من السيئ جداً إهمال الطرق الأخرى من أجل استخدام هذه الطريقة، فما من عاقل يرغب في السقوط وهو يعتقد أنه قد يجد من يأخذ بيده، وهو أمر قد يحدث وقد لا يحدث، وإذا حدث لك هذا الأمر فلا تكن مطمئناً، لأنك لم تعتمد على نفسك، ولكن ساعدك الآخرون كما يساعدون الجبناء. إن طرق الدفاع الصالحة الوحيدة والأكيدة والدائمة هي تلك الطرق التي تعتمد عليك وحدك وعلى قدراتك وليس على الآخرين.

* * * *

٢٥ دور الحظ في العلاقات البشرية وكيف يمكن التصدي له ؟

أعرف أن العديد من الكتاب يرى أن الحظ يسيطر على أحداث هذا العالم، وأن البشر ليس باستطاعته أن يغيرها أياً كانت، ولذلك فإن كثرة التعب في الحياة غير مفيدة، لنذر الصدفة تحكم الأمور. وهذا الرأي يجد تأييداً كبيراً في أيامنا هذه بسبب ما يحدث من تغييرات كبيرة وأحداث إنسانية. لكنني حين أفكر فيها أميل أحياناً إلى الانضمام إلى هذا الرأي إلى حد ما. لكن، وحتى لا نقضي على إرادتنا قضاء تاماً، أرى أنه من الأصوب أن نعتبر أن الحظ يحكم نصف أعمالنا، ويترك لنا النصف الآخر تقريباً. وإني أشبه الحظ بالنهر الهائج القوي سريع التيار، الذي يفيض على السهول، ويقتلع الشجر، ويهدم المباني، وينقل التربة من شاطئ لآخر، يفر الناس أمامه، ويستسلم الجميع لهياجه، ولا يقوون على الوقوف أمامه. ومع ذلك ورغم طبيعته هذه فإن الناس يظلون قادرين على مواجهته والاحتراس منه، فهم يبنون السدود والجسور حين يكون هادئاً، فإذا ما هاج يجري في قناة أو تقل خطورته واندفاعه. وبالمثل نجد أن الحظ تظهر قوته فقط إذا لم تكن هناك تدابير متخذة ضده. فيوجه نفسه إلى حيث لا توجد تدابير ضده أو موانع تعوقه. وإذا ما نظرنا إلى إيطاليا التي كانت مسرحاً لهذه التغيرات، وكانت سبباً فيها، فسنجدها بلدا بلا أي حواجز أو جسور من أي نوع. ولو أنها محمية بطريقة صحيحة مثل ألمانيا وأسبانيا وفرنسا، لما استطاع فيضان أن يؤثر فيها بشدة هكذا، وربما لم يكن ليحدث أصلاً.

وهذا كاف للتصدي للحظ بصفة عامة. ولكني حين أقتصر على حالات خاصة فإني أشير إلى مثال يحدث وهو أن المرء قد يرى أميرا يأتيه الحظ اليوم، ثم يحطمه غداً، والأمير على حاله لم تتغير أخلاقه أو غيرها. وأول أسباب ذلك هو أن الأمير الذي يعتمد تماماً على الحظ يهلك إذا تغير حظه. وأعتقد أيضاً أن السعيد هو من تتفق أعماله مع متطلبات العصر، وفي المقابل فإن التعيس هو من لا تساير أعماله عصره. وذلك لأن المرء يرى الرجال من خلال ما يفعلونه من أجل تحقيق أغراضهم، وبطرق مختلفة. فهذا يصل بالحذر، وذلك يصل بالتسرع، وآخر بالعنف، أو بالمكر أو بالصبر، وآخرون يستخدمون عكس هذه الصفات. وكل منهم قد يحقق هدفه رغم اختلاف مناهجهم تماماً. وقد نرى رجلين حذرين ينجح أحدهما في الوصول إلى ما يريد، ويفشل الآخر، ورجلين آخرين يحققان نفس القدر من النجاح رغم اختلاف طريقتيهما، فهذا مندفع وذاك حذر. والسر في هذا التباين يرجع إلى طبيعة العصر واتفاقها مع ما يقومون به من أعمال أم لا. وعلى هذا الأمر تتوقف أيضاً التغيرات التي تحدث في مدى الرفاهية. فإذا كان الزمان والظروف المعاصرة ملائمين لمن يعمل بحذر فإنه سينجح، ولكن إذا تغير الزمان والظروف، فإنه يهلك لأنه لم يغير من طريقة تناوله للأمور. ولا يوجد هناك حكيم يستطيع التكيف مع كل الأحوال أياً كانت. وذلك إما لفشله في التكيف مع ما لا تمكنه منه طبيعته، أو لأنه ينجح فقط إذا اتبع طريقة واحدة ثابتة.

وقد كانت كل أعمال البابا "جوليوس" متسرعة، وكان الوقت والأحوال المحيطة ملائمين، فكان دائماً ما يصل إلى نتيجة طيبة. فإذا نظرنا إلى أول حرب قام بها ضد بولونيا وذلك أثناء حياة "جيوفاني بنتيفوجلي" وهي لم تلق

ترحيباً لا من البنادقة ولا من ملك أسبانيا ، كما أن فرنسا قد أجرت معه حواراً بشأن الحملة. ومع ذلك قام بالإعداد للحملة بنفسه لما لديه من استعدادات جيدة وما يتصف به من تعجل. ولذلك توقفت أسبانيا والبنادقة وترددوا. وكان دافع البنادقة في ذلك هو الخوف بينما كانت أسبانيا ترغب في استعادة جميع مملكة نابولي. لكنه أشرك معه ملك فرنسا الذي لاحظ إقدامه فرغب في مصادقته ليكسر شوكة البنادقة، وأدرك في نفس الوقت أن البابا لن يرفض مساعدته له بقواته لأن في ذلك إهانة شديدة. وهكذا تمكن "جوليوس الثاني" بتعجله ما لم يكن باستطاعة أي بابا آخر أن ينجزه مهما أوتي من حكمة. لأنه لو انتظر حتى تتم كل الترتيبات ويعد كل شيء قبل أن يغادر روما لما نجح أبداً. حيث إنه من المحتمل أن يجد ملك فرنسا ألف عذر، وأن يوحي إليه الآخرون بألف من المخاوف. وإني أكتفي بعمله هذا دون بقية أعماله الأخرى ، وجميعها من هذا النوع، وكلها نجح نجاحاً كبيراً. فهو لم يجرب الفشل وحياته كانت قصيرة. وربما كان قد هلك لو أنه واجه ظروفا كان من الضروري له فيها أن يعمل بحذر وتأن.

والخلاصة هي أنه: إن تغير الحظ وبقي البشر على طريقتهم الثابتة فإنهم يحققون نجاحاً طالما تلاءمت هذه الطرق مع الظروف المحيطة بهم. لكن عندما تتعارض الطرق مع الظروف المحيطة فإنهم لا يحققون نجاحاً. وأني أرى أن الإقدام أفضل من الحذر، فالحظ امرأة لن تفر بها إلا بالقوة. ومن الممكن أن نلاحظ أن الحظ يستسلم للشجاع أكثر من أولئك الذين يعلمون بروية. ولهذا فالحظ كالمرأة يصادق الشباب دائماً، لأنهم أكثر عنفاً وأقل حذراً، ولذلك فهم يسيطرون عليه بجرأة تفوق جرأة الآخرين.

٢٦ دعوة إلى تحرير إيطاليا من البرابرة

والآن فإني قد تناولت كل الأمور التي تحدثت عنها وتأملتها في داخلي، وقلت في نفسي هل الوقت الحاضر ملائم لظهور أمير جديد في إيطاليا، وإن كانت الأوضاع غير مناسبة لذلك، لكنى أرى أن الأحوال تتلاقى وتتشابك حتى يستفيد منها حاكم جديد يقوم بهذا العمل المجيد. ولا أجد أن هناك وقتا أنسب من الوقت الحاضر. وإذا كان من الضروري أن يكون بنو إسرائيل عبيداً في مصر حتى تظهر لنا قدرات موسى "عليه السلام" . إذن لابد أيضاً لإيطاليا أن تصل إلى وضع أحط من عبودية بني إسرائيل، وأن يُبطش بها أكثر مما حدث مع الفرس، وأن يتفرق شملها وتصبح بلا حاكم وبلا نظام ومهزومة ومنهوبة وممزقة الأشلاء ومغلوبة على أمرها بعدما مرت بكل أنواع الدمار.

إلا أن هناك بارقة أمل في فرد محدد قد يهيئه الله لخلاص البلاد، إلا أن حظه قد تعثر وهو في قمة مهمته، وأصبحت إيطاليا الآن بعد أن فارقت الحياة في انتظار من يضمد جراحها ويضع حداً لما يحدث في "لمبارديا" وللسلب والنهب في مملكة "نابولي" و"توسكانيا"، ويبرئ أيطاليا من هذه الجروح المتقيحة. إن إيطاليا تتضرع إلى الله كي يرسل إليها من يخلصها من قسوة البرابرة وإهاناتهم. كما أنها مستعدة للعمل تحت لواء يرفعه أي إنسان. ولا أمل لإيطاليا الآن إلا أن يتزعم مقامكم العالي هذا التحرير، فهو عال بنفوذه

وطالعه السعيد، ويناصره الله والكنيسة التي يستمد منها سلطانه. وهذا الأمر لن يكون شاقاً لو وضعت نصب عينيك ما ذكرته من أعمال الرجال وقصص حياتهم، وإن كان هؤلاء الرجال فرادى وقلة نادرة، إلا أنهم بشر مثلنا على أي حال، والفرصة التي أتيحت لكل منهم كانت أقل من الفرصة الحالية، فأعمالهم لم تكن أكثر عدلاً من هذا العمل العظيم أو أشد سهولة منه، كما أن الله في عونك لأن قضيتك عادلة. إضافة إلى أن هناك معجزات كثيرة قد حدثت من قبل في مثل هذه القضايا التي تدافع عن العدل مثل انشقاق البحر، والغمامة، وتفجر الماء من الصخر، ونزول المن من السماء. والآن تكاتفت كل الظرف لإعلائك، وما عليك إلا أن تكمل ما تبقى، فالله سبحانه وتعالى لا يفعل لنا كل ما نريد حتى تصبح لدينا إرادة حرة وننجزه وبذلك ننال نصيبنا من المجد.

وليس من العجيب أن أحداً ممن ذكرت من الإيطاليين لم يقم بما نأمل أن يفعله مقامك العالي. وإذا كانت القدرات العسكرية قد قضي عليها تماماً في ثورات إيطالية كبيرة جداً، وفي العمليات العسكرية الكبيرة، فإن سبب ذلك هو الأساليب القديمة غير الصالحة، ولا شئ يحقق للرجال المجد الكبير سوى سن القوانين الجديدة، هي أمور تجعله موضع إعجاب واحترام. ويوجد في إيطاليا ما يسمح بإدخال نظم جديدة. ولننظر كيف أن فئة من الإيطاليين قد تفوقت في القتال الفردي والمبارزات، إلا أن جيوشها كانت ضعيفة، والسبب يعود بالكامل إلى ضعف القادة، فلم يظهر من بينهم حتى الآن من يجعل الآخرين يطيعونه دون تذمر. ولذلك كان الفشل هو حليف الجيوش الإيطالية

لفترة طويلة من الزمن، وفي كل الحروب التي قامت خلال العشرين عاماً الأخيرة. وهذا واضح في كل من "تارو" و"كابوا" "وجنوا" و"فايلا" و"بولونيا" و"مستري".

ولهذا إذا أراد سموكم أن يقتفي آثار العظماء من القادة الذين حرروا أوطانهم، فلابد لك أولاً أن تعد نفسك بالأساس الصحيح لما ستقوم به، وهو قواتك الوطنية، فلن تجد جنودا يخلصون لك أكثر منهم، ولن تجد أفضل منهم. وإذا كانت الجيوش جميعا جيدة وهي فرادى، فإنها ستكون أجود إذا اتحدت تحت قيادة أمير يكرمها وتنال رضاه. ولهذا فمن الضروري أن تكون هذه القوات التي تدافع عن الوطن من الإيطاليين. وعلى الرغم من أن المشاة السويسريين والأسبان أقوياء جداً إلا أن لكل منهما عيوبها، ويمكننا أن نتصدى لهما بتنظيم عسكري مختلف، ولابد من أن نكون على يقين من النصر عليهما، فالأسبان لا يستطيعون الصمود أمام هجوم الفرسان، والسويسريين لابد أن يخافوا ملاقاة مشاة أقوياء مثلهم. وأمامنا أمثلة كثيرة منها موقعة "رافنا"حيث هاجم مشاة الأسبان على الكتائب الألمانية المنظمة بنفس طريقة تنظيم السويسريين. إلا أن الأسبان بخفتهم، وباستخدام ما لديهم من تروس قد تمكنوا من اختراق الصفوف، وأن يحصنوا أنفسهم في مواقع يهاجمون منها هجوماً موفقاً، ولولا إغارة الفرسان عليهم لتمكنوا من القضاء على الجميع بالكامل. وإذا عرفنا عيوب هذين النوعين من المشاة فإننا سنتمكن من تشكيل نوع ثالث قادر على مقاومة الفرسان، ولا يخشى المشاة، وهذا يتم باختيار الأسلحة والتنظيم الجديد وهي الأمور التي تمنح الأمير الجديد سمعة طيبة ينال

بها العظمة حين يطبقها لأول مرة.

ولهذا لا يجب أن تفوت هذه الفرصة دون اقتناص، حتى تجد إيطاليا من يحررها أخيراً. وأنا لا أستطيع أن أعبر عن الحب الذي سيقابل به من يحرر كل هذه الولايات التي ذاقت الأمرين بسبب الغزو الأجنبي، وعن المتعطشين للثأر وما سيلاقيه المحرر من ولاء ثابت، وعقيدة قوية، ودموع الشكر والعرفان بالجميل. فأي باب يمكن أن يغلق في وجه هذا المحرر؟ ومن ذا الذي يرفض أن يطيعه؟ وأين الإيطالي الذي لا يقبل يسانده ؟ أن رائحة السيطرة الأجنبية تزكم كل الأنوف، فهل لمقامكم العالي أن يؤدي هذا الواجب بشجاعة وأمل كبير في هذه القضية العادلة، حتى ينهض وطن آباءنا وأجدادنا تحت راية الوطن ويصدق في ذلك الحين تماماً قول الشاعر بترارك:

استثار الغضب حمية الأبطال

فحملوا السلاح وسعوا للنزال

جمعت أرض الأجداد أيادي الرجال

فبلادنا نابضة ولن نكف عن القتال

فهرس الكتاب

كتب غيرت مجرى العالم

كتاب الأمير

لمكيافيللى



يعد كتاب "الأمير" لمؤلفه "مكيافيللى" من الكتب التى أثارت ضجة كبيرة فى عالم السياسة . وقد اختلفت الآراء حوله . وإن كان رأى الغالبية لا ينصفه نظرا لما فيه من سلوكيات بغيضة بعيدة كل البعد عن القيم والأخلاقيات.

وقد أصبحت شخصية مكيافيللى ذاتها مثالا للخسة والنذالة لما يبثه فى عقول الناس من أفكار مسمومة . ولم لا ! وهو صاحب المبدأ الحقير "الغاية تبرر الوسيلة" الذى يدعو إلى أن يرمى الإنسان بأخلاقه ومبادئه وراء ظهره حتى يفسح الطريق للوصول إلى اهدافه الدنيئة المنبثقة عن الأنانية وحب السيطرة والتملك واغتصاب حقوق الغير.

وإذا كانت هذه هى حقيقة الكتاب فإنه لشىء مروع أن يكون هذا الكتاب ميثاق عمل ومنهج معاملات لكثير من القادة والسياسيين . ومن بينهم لينين وستالين وهتلر وغيرهم .

وبالرغم من أن الكتاب يضم كثيرا من عوامل هدم للمبادىء والمثل إلا أن من بين صفحاته تخرج بعض التحليلات القوية لكيفية اختيار القائد لمساعديه ورجاله . وأيضا كيفية خوض المعارك والتخطيط لها.

ونحن نقدم هذا الكتاب لا من أجل العمل به . والاقتناع بما جاء فيه . ولكن من أجل إلقاء الضوء على بعض الأفكار التى اقتنع بها كثير من السياسيين وطبقوها فى حكوماتهم . ولكى ينقى القارىء خلفياته الثقافية ويدرك أنه يمكن أن تصلنا من الثقافات المختلفة معاول هدم كثيرة للقيم والأخلاق . ومن ثم فإنه دعوة للحذر والحيطة تجاه ما نقرأه أو يقدم لنا على مائدة الثقافة الغربية. وسوف يجد القارىء أن نظريات هذا الكتاب التى هوجمت هجوما عنيفا مطبقة للأسف فى بعض المجتمعات الحالية ولا عزاء للإخلاص والمبادئ.

الناشر